روايات  عالمية

الساحرة

روايات
عالمية

العدد رقم ٢٧٠

الساحر

تأليف :
الروائى الفرنسى الكبير
جورج سيمنون

ترجمة :
عبد المنعم صادق

الجزء الأول

الفصل الأول

قرقع الزناد هذه المرة عندما أضاف لعبة الساعة السحرية الى لعبة حلقات الفقير وزهر الطاولة المتحرك دون أن يعلق أهمية خاصة على هذه الاضافة التى لم يذكرها ضمن برنامجه الخاص بهذا الحفل ، فقد كان من عادته حتى فى حفل قليل الأهمية مثل هذا الحفل أن يضيف بعض النمر الزائدة حتى يستطيع أن يجرى بعض التغييرات طبقا لتأثير ذلك فى الجمهور .

ومضت الأمور على مايرام ، وقد سبق له أن حضر الى بورج لارين قبل ذلك لتقديم مثل هذا الحفل منذ احد عشر أو اثنى عشر عاما — قبل جولى — ولكن القاعة كانت مختلفة عن هذه ، بل ان الشارع قد تغير والبيوت المجاورة تغيرت الى درجة ماكاد معها يعرف شيئا منها ، وكان قد قيل له : ان الحفل سيبدأ فى تمام الساعة التاسعة فوصل فى الثامنة قادما بالسيارة العامة حاملا معه معداته ومعطفه فى حقيبتين .

وكانوا قد وضعوا الاعلانات الكبيرة عنه على جانبى الباب .. والقى نظرة سريعة عاجلة عليها فى ذلك الجو البارد الشبيه بالمظلم انها الاعلانات نفسها منذ عشرين عاما ، وكنت تستطيع وانت فى المر الداخلى سماع الأصوات التى فى القاعة الفسيحة حيث المقاعد بالية غير متجانسة وحيث الاضاءة باهتة .

وكان متعودا ذلك كما كان متعودا معرفة كبار أعضاء اللجنة بين عامة الناس فور رؤيتهم وقد أحاطت الأشرطة بأذرعتهم .

وادخلوه الى الكواليس ، ولم يكن المسرح فى الحقيقة سوى منصة يصعد اليها المرء بدرجة واحدة ، أما مؤخرة المسرح فلم يزد اتساعها على ثلاث أقدام بين الستار الخلفى والجدار .

واعتذر له عضو اللجنة قائلا :

« ليس المسرح مريحا واذا كنت فى حاجة الى شىء فوجه نظرك الى وسيبدأ الجزء الأول حالا » .

وكان الرجل متوتر الاعصاب . وكان جميع السادة أعضاء اللجنة ذوى الأشرطة المحيطة بأذرعتهم — يروحون ويغدون ويتدخلون فيما

لايعنيهم ويوجهون أسئلتهم فى صياح هنا وهنـــاك على حين أن الجمهور ينتظر فى المقاعد .

ومضى ربع ساعة وسمعت دقات المسرح التقليدية الثـــلاث اذ دق بعضهم خشبة المسرح بمطرقة ثلاث مرات ، ثم سمعت بعض عبارات موسيقية من البيانو الذى رددت جدران القاعة العـارية أنغامه الغليظة .

ـ سيداتى وسادتى أعضاء النادى : يشرفنى أن أقـــدم لكم الليلة . .

ولم يكن من عادة أنطوان أن يغير بنطلونه لأنه كان دائما يخـرج من بيته مرتديا البنطلون الاسود ، ولكنه كان وقتئذ بين الســتارة الخلفية والجدار منهمكا فى تثبيت صديرية منشاة فى مقـــدمة قميصه وهو وحده واثق من نفسه ، فلم يكن فى حركاته عجلة بل كان يعمل على مهل وبدقة بالغة ، وكان عقله الباطن وحده هو الذى يسجل ما يحدث فى الجانب الآخر من المسرح .

وعاد البيانو يعزف من جديد وأخذ أحد المغنيين فى الغنـاء على حين كان أنطوان يجعل ملابسه بالهيئة التى تتطلبها ألعـابه . . وقد قام أنطوان بهذه الاجراءات مائتين أو مائتين وخمسين ليلـة سنويا منذ عدد كبير من الأعوام الى حد أصبحت معه هذهالحركات اوتوماتيكية تعقب كل منها الأخرى فى نظام محكم .

وفك منضدته ذات السيقان المغطاة بالنيكل وذات الغطـــاء المخمل الاحمر المطرز بحرف «أ» المذهب .

ولما انتهى المغنى من غنائه أطل عضو اللجنة برأسه عليه وقال :

ـ هل أنت فى حاجة الى شيء ؟.

ـ أشكرك ، لست فى حاجة الى شيء .

ولم يترك شيئا للظروف فوضع فى جيوبه كل الأدوات اللازمة لكل لعبة من ألعابه وكذلك وضع بعض الأدوات فى الفراغاتالخفية من المنضدة . وكما هى عادته أضاف الأدوات الخاصة بلعبتين أو ثلاث .

ولم يكن فى نيته ان يقدم لعبة الساعة ، فقد كانت هذه اللعبة محفوفة بالخطر ، لأن استدعاءه أحد المتفرجين للاشتراك معه فيها كان أحيانا يفسد اللعبة ، وهى تعتمد على وسط المتفرجين وعـلى

الجو السائد ، فبعض الشبان يحلو لهم أن يبينـــوا لرفاقهم انهم لايخدعون أبدا ، فقد حدث فى أثناء حفل اقامه انطوان فى احـدى القرى أن انتزع جزار غطاء المنضدة فجأة وانفجر ضاحكا اذ كشف ذلك الجيب من الفلين وفيه الأرانب الحية .

وبدأت فتاة تغنى بين مجموعة من الفتيات ، وكان انطـــوان المحترف الوحيد فى البرنامج ، أما الجزء الأول من هذا البرنامج فقد قدمه أعضاء النادى .

وأخيرا عزف غلام نابغ على الكمان ، وكان الغلام فى الثامنة أو التاسعة من عمره ، وأعقب ذلك صوت أحذية المتفرجين على الأرض الخشبية بالقاعة ، وصرت المقاعد المتحركة اذ يبرحها الجالســون عليها فكان ذلك ايذانا ببدء فترة الاستراحة .

ـ الا تشرب كأسا ؟.

ـ نعم وأشكرك ..

ـ أظنك لاتشرب الا بعد الانتهاء من تقديم العابك .

ـ أنا لا اشرب الخمر اطلاقا .

وكان صادقا ، وكانت الحقيقة اكثر تعقيدا ، ولكنه اساسا لم يكن كاذبا ، وجاء بعض الصبيان وبعض الرجال وبعض النســاء واطلوا عليه من وراء الستار الخلفى عن كثب ليروه وهو جــالس الى منضدته الصغيرة بربطة عنقه البيضاء وهو على اهبة الاستعداد تماما ماعدا أنه لم يكن قد وضع بعد على وجهه القناع الأســـود الصغير ، فهل أدهشهم أن يجدوا وجهه كوجه أى شخص آخر ،أو لأنه كان اكبر سنا مما تدل عليه صورته فى الاعلانات ؟.

وكان قد وضع على وجهه المكياج الخفيف الذى تعوده فى قاعات كهذه . وكان قد ألف تحديق الأنظار فيه فلم يعد ذلك يرهبه أو يربكه بل ظل جالسا جلسة طبيعية يدخن سيجارته وقد وضـــع ساقا فوق أخرى .

وتستمر فترة الاستراحة دائما فى مسارح الهواة وقتا أطول منها فى المسارح الحقيقية ويجد المنظمون صعوبة فى اعادة الناس الى مقاعدهم .

ـ ابدأ أنت يالويس فأعد أسرتك الى مقاعدها وسأحرج انالاعادة الآخرين .

ولم يسمح لأحد بمساعدته فى حمل منضدته من مؤخرة المسرح ، وانتظر حتى كفوا جميعا عن السعال وعن تحريك أقدامهم وايديهم وابتسم من وراء قناعه المخملى وأخيرا قال :

ـ سيداتى وسادتى ، سيكون لى الشرف ...

واستطاع ان يرى الوجوه فى هذه الاضاءة الشاحبة التى لم تستطع محو تفصيلات تلك الوجود بل أكدتها وأبرزتها وكان فى استطاعته بعد ذلك ان يذكر مميزات كل وجه ، وفى آخر القاعة كان بعض الرجال واقفين حول بار من ألواح خشبية وضعت فوق حمالات متنقلة ، وكان أحيانا يسمع صوت فتح زجاجة بيرة ، ولم يكن لهذا الصوت ولا لمنظر الزجاجات تأثير عليه وهى الزجاجات الطويلة ذات السمرة القبيحة مما يقدم فى النوادى وكذا فى الاحتفالات الشعبية .

وكان قد قال لجولى .

ـ انه سيعود اليها عند منتصف الليل على الأكثر . وذلك عندما صاحبته حتى رأس السلم كعادتها دائما ولفت الشال حول عنقه وقالت له .

ـ حذار من البرد .

ـ نعم .

وقبلته ، ولما أخذ يهبط السلم وحقيبتاه بيديه همست له قائلة :

ـ أنطوان ..

ـ ماذا ؟.

وكان واقفا على الدرجة الثالثة أو الرابعة من السلم رافعا رأسه نحوها ورأى برغم ضعف الضوء شفتها ترتعش وهى تحاول الابتسام فى شجاعة وتقول :

ـ لاشىء ، امض ، حالا .

وبدأ بالألعاب الصغيرة السهلة ذات التأثير الكبير مثل العصا السحرية وأنفاس الساحر والمناديل الحريرية الثلاثة ، ولم يتكلم كثيرا اذ لم يكن من أولئك السحرة الذين يزينون ألعابهم بالكلام أو بالنكات .

وكانت يداه البيضاوان الطويلتان تقومان بمهمة الكلام ، وكانتا

ـ وقد شمرتا الى مافوق المعصمين وهماتتحركان ـ تبدوان وكأنهما لهما حياتهما الخاصة بهما ، ولم تؤديا واجبهما على أتم وجه وذلك بسبب ضعف الاضاءة ، تلك الاضاءة التى لاتتوافر كما يجب الافى المسارح المعدة اعدادا كاملا ، وبالرغم من ذلك استطاع أن يرى كل الأعين وهى مركزة على يديه وحركاتهما .

ـ انى آخذ هذه الحلقة ثم هذه الحلقة الثانيـــة هكذا ثم ...

وأتمت يداه بقية الكلام وأعقب ذلك انبهار الأنفاس وضجـــة الضحك وموجة التصفيق والاستحسان .

لماذا قرر فجأة ان يدخل لعبة الساعة السحرية بين لعبتين كان قد أعدهما من قبل ؟ لم يكن لذلك سبب غير الرغبة فى اسـعاد الحاضرين لأنهم كانوا ظرافا مبتهجين فى جلستهم وهم مرتدون أفخر ثيابهم .

ـ هل يتفضل أحد السادة من الحاضرين بالصعود الى المسرح واعارتى ساعته ؟ .

وكان رد الفعل تلقائيا ، اذ التفت الجمهور مرة واحدة الى الصف الخلفى ، واستطاع من سماعه الأسماء التى نودى عليها او همس بها أن يعرف أشهر الشخصيات بين الحاضرين ، وتركزت النداءات والهمسات والاشارات على فتى فى أوائل الحلقة الثالثة من عمره وهو مضطجع الى البار وبيده زجاجة بيرة .

ـ تعال يا أوجين ! .

وهز رأسه باسما وقال عبارة لم يمكن سماعها وفى النهاية سمح لنفســه بأن يدفعه الآخرون الى الأمام وهو يهز كتفيه .

وقال وهو يتعثر فى الصعود الى المسرح « هل هنـــاك بأس لو انها كانت ساعة ذهبية ؟ .

ووقف على المسرح مواجها الجمهور واستمر فى ترنحه واشار بعينه لأصدقائه .

كان هذا عندما قرقع الزناد بغباء لأول مرة خلال ثلاثة أسابيع انقضت بعد رحلته الى مدينة الهافر حيث حدث مثل هذا وتحاشى هو وجولى ذكره أو حتى مجرد التفكير فيه منذ ذلك الحين ، وأخرج الشاب ساعة من جيب صديريته وهى ساعة ذهبية كبيرة لابد أنها

كانت لأبيه أو حتى لجده من قبل ، وأمسكها انطوان ورفع رأسه شاكرا لمساعده الذى فاحت من فمه رائحة البيرة .

ومن المؤكد أن قراره الحاسم وقتئذ هو أن يقاوم ، وكان من الممكن أن يقسم وهو غير حانث على أن يقاوم حتى يعود عقب انتهاء الحفل الى بيته فى شارع دارو .

ولكن هناك نوعا آخر من المعرفة أكثر عمقا وان كان صعبا فى التعبير عنه . وكان انطوان يسميه فرقعة الزناد وكانت هذه التسمية بينه وبين نفسه دون حاجة الى التعبير عنها بصوت مسموع .

ولم يلاحظ الجمهور شيئا ، وكذلك لم يلاحظ العملاق الشاب ذو الساعة شيئ وهو يتنفس بصعوبة ، لأنه كان أشد انفعالا من رغبته فى الظهور . ولاتزال رائحة البيرة تفوح منه . وحتى لو لم يكن هناك القناع مااستطاع أحد أن يقرأ شيئا فى ملامحه . ووضعت الساعة فى منديل حريرى وردى اللون ولفت فيه وكأنها قطعة من الحلوى ، وعندما أمسك انطوان مطرقة كانت معدة فوق المنضدة سرت فى القاعة الهزة الصغيرة المعتادة ، وعندما سمع صوت تحطيم الزجاج وطرق المعدن تحت ضربات المطرقة ذهبت عن الفتى أوجين ابتسامته ولم يعد هناك أى صوت أو تنفس .

ومنذ تلك اللحظة أصبح من الضرورى ان يسرع فى العمل لتحاشي وقوع اى حادث أو رد فعل غير مقبول .

ــ والآن ياسيدىأستميحك الاذن بالبحث فى جيبصديريتك.

فأخرج الساعة سليمةكاملة ، وانفجرتالصالة بالابتهاج والتحية ووقف بعض المتفرجين واحمر وجه أوجين وصافح اليد الممتدة اليه ومضى وهو يترنح أكثر منه قبلا .

وبقيت من البرنامج ثلاث لعب أخرى تنتهى بلعبة العلم ،ومضى كل شيء هادئا بدون عقبة . وبعد أن انتهى العمل ارتقى الغلمان خشبة المسرح واخذوا يوجهون اسئلتهم الى انطوان .

واستبدل ثيابه وراء الستارة الخلفية واخذ أجره فى مظروف

ــ الآن وقد انتهيت من عملك فهل تشرب معنا كأسا ، لقد عاد احد اعضاء اللجنة من فاليز وجاء ومعه زجاجة من الكالفادو المعتق .

ـ أشكرك كثيرا ولكنى لا أستطيع قبول ذلك لسوء الحظ .
ـ هل تشكو مرضا بالكبد ؟ .
وأجاب بالايجاب اذ كانت هذه الاجابة أسهل .
ـ لاتثق بالأطباء .
ومضى دون أن يشرب شيئا ، وفى هذا الوقت لم يكن هناك سوى بعض الرجال الذين احمرت وجوههم تجمعوا حول البار فى مؤخرة الصالة التى أطفئت بعض مصابيحها ، وكان عليه أن يمشى مائتى ياردة حتى يصل الى الطريق العام حيث يلحق بالسيارة العامة . ورفع ياقة معطفه اذ كانت الريح تهب من الشمال وبين كل أربع شقق يمر بها كانت غرفة واحدة لاتزال مضاءة ، وكان المبنى عند الناصية بارا ليس به سوى عميل واحد هو سائق سيارة نقل ثقيلة وقفت بالقرب من البار .
وكانت السيارة العامة على وشك الوصول فى أية لحظة ودخل البار ووضع احدى الحقيبتين جانبا وقال :
ـ كأسا من البراندى بسرعة .
وقال براندى كما لو كان يقول أى شىء آخر . كالفادوس أومارك بنبيذ أحمر أونبيذ أبيض ، لم يكن هناك فارق بين واحد وآخر . واستطاع أن يرى خياله فى المرآة المعتمة التى كانت فوقها ساعة عليها شعار اعلانى ، وكانت تدل على أن الساعة قد جاوزت الحادية عشرة بخمس دقائق .
وشرب كأس البراندى وتحسس النقود فى جيبه .
وكان يعرف الثمن فقد أخرج من جيبه المبلغ المطلوب .
واندفع خارجا ليلحق بالسيارة العامة ، كانوا خمسة راكبين كل منهم بعيد عن الآخر لايدرى أين ينظر ؟ ويهتز مع كل هزة من السيارة ، ومرت البيوت الى الوراء وهى فى الغالب متشابهة ذات نوافذ مظلمة وبعضها نوافذها مضاءة ، وأحيانا كان يستطيع رؤية الناس يتحركون بين ستائر النوافذ ، وكانت أبواب الحوانيت الحديدية مغلقة ، ولكن من حين لآخر كان يرى مقهى مفتوحا فيعطيه الاحساس بالدفء والألفة .
وعند باب اورليانز لم يكن محتاجا لأكثر من أن يستقل القطار الفرعى او السيارة العامة التى تجتاز ميدان التيرن وهو على بعد

بضع خطوات من منزله ، أما اذا اختار السكة الحديدية الفرعية فان القطار لايقف فى الطريق ، أما بالسيارة العامة فانه يستطيع اجتياز شارع سيباستبول .

اذا لم تكن السيارة العامة فى المحطة عند وصولنا فانى سأختار السكة الحديدية الفرعية .

وكان يرجو الا يكون الأمر كذلك ، كما كان يرجو أن يتوقف فى الطريق . فقد كانت هذه اسوأ لحظة ، هذه اللحظة التى لايزال فيها ذهنه صافيا ولا يزال فيها يكافح وهو يحتقر نفسه لضعف ارادته .

وسرعان ما تتحسن الأمور حتى من الناحية البدنية ، ان هذا الصداع وهذا الفراغ فى معدته وهذه الحمى غير المريحة ستختفى بعد الكأس الثالثة ، وعلى كل حال فمن يدرى ؟ ربما تجاوزت فرقعة الزناد الرجل ذا الساعة ورائحةالبيرة .. لماذاشعرت جولى بالحاجة الى استدعائه بعد أن بدأ هبوط السلم وهو لايفكر فى شيء ؟.

انها لم تقل شيئا بالتأكيد بل ابتسمت له وهمست قائلة :

ــ عد حـــالا .

كانت غلطة ، وقد سبق له أن وضح ذلك لها ، وتوسل اليها أن تمسك لسانها وتتحاشى قول كلمات معينة وبعض المواقف المخيفة ومواقف الاستسلام .

انه سيستقل قطار السكة الحديدية الفرعية سواء كانت هناك سيارة عامة واقفة فى المحطة أم لم تكن هناك مثل هذه السيارة ، ولكنه سيشرب شيئا ما قبل كل شيء للتخلص من مذاق الكونياك ، وليكن ذلك الشيء هو البيرة مثلا ، مجرد كأس ، ولم تكن البارات حول باب اورليانز من ذلك النوع الخطر عليه ، فهى بارات حديثة ضخمة تتألق بما فيها من أشياء معدنية مطلية بالنيكل أو الكروم حيث يقدم لك الخمر خدم لايتطلعون ابدا اليك ثم يصيحون للواقف عند البار يرددون طلبك .

فاذا وصل الى البيت انتهز فرصة هدوئه وسيطرته التامةعلى نفسه ليحذر زوجته بقوله :

ــ اعرف انك تبذلين قصارى جهدك وانا أفهمك ، وكل ماارجوه منك هو أن تحاولى فهمى ، فهل هذا الأمر بالغ الصعوبة ؟ انارجل ،

وقد ظللت طوال حياتي وانا اشعر انى اعيش كرجل ، وعلى حين فجأة ولغير ما سبب تتجسسين على وتتصورين أنى سأ ..

ونزل من السيارة العامة أخيرا ؛ ولم تكن السيارة العامة الاخرى واقفة فى المحطة ، وأخذت امرأة شابة كانت قد ركبت معه من بورج لارين فى هبوط سلم السكة الحديدية الفرعية . وكان على وشك أن يحذو حذوها لو لم يكن عليه أن يجر حقيبتيه اللتين كانتا ثقيلتين . هذا الى أنه كان قد وعد نفسه كأسا من البيرة ، وكان صنبور البيرة هناك خلف نوافذ الحانة وهناك زبد يفيض عن كوب، ان هذا يريح معدته ، ولم يكن ذلك مجرد عذر بل كان حقيقة .

وكان هناك شيء آخر لم تفهمه جولى ، وهو أنه ـ وان كان قد ظل يمارس هذه المهنة أكثر من ثلاثين عاما ـ لايزال يرهب المسرح فى كل مرة يقدم فيها العابه السحرية ؛ وهناك رجال آخرون غيره وبعض المشهورين ممن تذكر اسماؤهم فى الدليل السنوى تلازمهم هذه الرهبة طوال حياتهم ، فأنت هنا تحت رحمة أقل حادث وتحت رحمة أى شرود ذهن وتحت رحمة أية حركة تكون اقل دقة من سواها ، وفى بعض الحالات قد يسبب السعال الشديد أو عطسة حدوث كارثة .

ـ عليك ان تعمل بكثير من الهدوء .

وهذا صحيح ظاهريا أما داخليا فلابد له من أن يجعلها تفهم ما يتطلبه اى عمل ولو كان طفيفا من توتر عصبى ، ومع ذلك فأنت بعد ذلك لاتستريح من لحظة لأخرى اذ يبقى التعب الشديد والخمول .

فترد عليه :

ـ وهل تظن ان الشراب يقضى على هذا التعب ؟.

ويجيب :

ـ نعم مادام المرء يلتزم ....

أيها الساقى ، كأسا من البيرة ..

«اكسبورت» ..

والاكسبورت اقوى انواع البيرة ، فأومأ برأسه ، اذن هذه هى النتيجة التى حققها ، وهى أن يخجل من عمل بسيط كهذا ، يخجل الى حد يجعله على وشك أن يستدعى الساقى ثانية ليطلب منه أن تكون البيرة عادية .

وهنا أيضا مرايا . وفى المقاهى والبارات دائما مرايا ، ولم يملك الا ان يلقى نظرة على خياله فى المرآة . وقد أثار قنوطه ما رآه من شيخوخة ورثاثة .

خمس وخمسون سنة . هل يستطيع المرء وهو صبى صغير ثم وهو شاب أن يتصور سيدا فى الخامسة والخمسين من عمره يمكن أن يكون فى بار قبل أن ينتصف الليل بربع ساعة ، ثم ينتـــابه تأنيب الضمير لأنه طلب كأسا من البيرة فحسب ؟.

ومع ذلك فهذه هى الحقيقة والبيرة اسوأ ما تكون مذاقا ، فهل يكون أكثر ذكاء فلا يشرب ثم يدفع الثمن ويمضى نحو محطة السكة الحديدية الفرعية ؟

وكان هناك اثنان يستندان الى مرفقيهما فوق البار نفسه عند دورانه .. ليته لم يبلغ الخامسة والخمسين من عمره . ان احـد الاثنين قارب الخمسين والأخرى لم تتجاوز الخامسة والعشرين ، وكلاهما يشرب شرابا يميل لونه الى الصفرة ، والرجل يشير لاعادة ملء الكأسين والمرأة تلعق قاع كأسها بلسان شره وتنفجر ضاحكة.

ولا يشعر أيهما بتأنيب ضمير بل هما يمرحان ، بل ان مرحهما أكثر من أن يكون عاديا .

وجاءت السيارة العامة بدون ضوضاء أو ضجة ووقفت عنـد باب البار .

— كم ؟.

وتردد ، ولو أنه شرب كأسا أخرى من البيرة لفاتته السيارة .

الآن استقر على رأى ، ولكن ذلك لم يكن عن وعى ، والأمر دائما أكثر تعقيدا من هذا وهو يعرف ذلك كل المعرفة ، ويعرف أن ذلك يجعله منتبها ميالا الى الاعتداء ، وأمسك حقيبتيه بحركة كان من الممكن ان يرفع بها ثلاثة أمثال وزنهما واصطدمتا بباب السيارة . واخيرا جلس فى السيارة واخذ ينظر الى الأشياء والناس فى ضوء جـــديد .

وبعد تلك الليلة التى قضاها فى الهافر اقسم جادا .. وهنا كان خطؤه . انه يخاف أن يسبب ايلاما لأحد وخاصة جولى . انه يحب جولى ، وهى تظن أنها تعرف ذلك على حين أنها فى الحقيقة ليست لديها أية فكرة عن مدى حبه اياها ، وليس هذا الحب خياليا فهـو

لايخدع نفسه ، اذ هو يحبها حبا جديا وهو يعلم أنه يحبها هذاالحب لا لما يتصورها عليه ، بل لما هى عليه فعلا .

وقد حاول المرة تلو المرة أن يجعلها تفهم هذا ، وهناك لحظات يظن فيها انه نجح فى هذا ويشعر أنه مقتنع بأنها فهمت وأن كل شيء سيصبح بسيطا ولكن لا تمضي ساعة حتى ...

كلمة واحدة أو نظرة واحدة تصبح كافية كما حدث الليلة عند رأس السلم ، انها لاتتبين مافى ذلك من معنى ، انها صادقة وتعتبر نفسها محبة وتتصور نفسها تعنى به .

وجميع البارات فى شارع سانت ميتشيل لاتزال مفتوحة ولكنها لاتثير اهتمامه كما لاتثير اهتمامه تلك البارات المفتوحة فى شارع سيباستيبول ، وعندما تكون السيارة مارة بالشوارع الكبرى ينهض فجأة ويسرع الى باب السيارة بسرعة كبيرة الى حد أن الركاب يظنونه سيلتقط الحقيبتين .

ـ معذرة فأنا نازل هنا .

ولا تزال هناك سيارات كل خمس عشرة دقيقة ، ولو دعا الأمر لاستقل قطار السكة الحديدية الفرعية ثم يعود الى شارع دارو بعد أن ينتصف الليل بنصف ساعة ، ليتها تكون قد نامت بدلا من أن تظل مستيقظة فى انتظاره !.

كفى ! كل هذا غباء ، عند ناصية شارع سانت دنيس بار صغير حيث كان يرتاده عندما كان فى الخامسة والعشرين من عمره ولايزال البار من الزنك والاضاءة فيه صفراء قذرة ، فهل تكون هناك فتاة كبيرة ذات أديم وردى تنتظر عند النافذة ؟.

والشيء المضحك هو أنه لايعرف ماذا يشرب ؟ ربما لايشرب شيئا على الاطلاق ، بل يقف هناك يحدق النظر امامه ، كلا !.. لأن الاتصال لن يتم على هذا النحو ، والمسألة أولا وقبل كل شيء مسألة اتصال . خذ الفتاة مثلا : هاهى ذى هناك فعلا ، ولكنها ليست تلك الفتاة الكبيرة السيئة التكوين والشقراء المرتسمة فى ذاكرته بل هى فتاة نحيفة ذات شعر أسود تفوح منها رائحة الثوم ، وهى بجوار الباب الذى يجاوره مدخل الفندق .. لقد كان هنا منذ خمسة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاما ولا يزال يذكر الرائحة .

أما الآن فلم يكن لذلك معنى ، وراقبته الفتاة وهو يدخل البار

بدون اهتمام ؟ ومن مقتضيات مهنته أن يدرك كلّ شيء من اللحظة الاولى ، وبالنظرة الأولى وهو يعرف أن الفتاة من جانبها قدلاحظت الحقيبتين المثلثتين ذواتي الزوايا المعدنية ، ولاحظت البنطلون والمعطف الاسود ، وربما لاحظت اثر المكياج في وجهه ، وفي هذه البيئة لايثير مظهره الدهشة وربما فطنت الى نوع عمله .

ولم تعد تهتم بهولا هو عادمهتما بها ، وهو يتساءل : ماذاسيشرب وعندما سأله البارمان أجاب :

ـ كالفادومس .

وحقيبتاه على نشارة الخشب فوق الأرض وفي آخر البار رجلان يتناقشان بصوت عال .

ثم قلت له :

ـ اسمع يا ارنست ، اذا كنت تظنني سكيرا فأنت مخطيء ...

ويشير بعينه ثم يشير الرجل الآخر بعينه .

ـ وماذا قال لك ؟.

ـ غط في نومه يا أخي .

ثم طلب الرجل كأسا أخرى .

وكان كلا الرجلين يرتدي ثيابا مهلهلة ولا يبين لهما عمر ولايعرف من أين اتيا .

لا بأس : فليس هناك اتصال ، وفي أمسية كهذه يجب عليه أن يمسك قطعة من الورق ، ويكتب عليها بضع كلمات يستطيع استخدامها فيما بعد مثل « ايجاد اتصال » وهذه مسألة أخرى يستطيع شرحها لجولي ، ولكنه يشعر مقدما تماما بأنها لن تفهم لأنها ليست في حاجة الى أن تتصل بأحد آخر سواه ، فهي لاتهتم بالناس الذين يمرون في الطريق والذين يسرعون الى محطة السكةالحديدية الفرعية أو ينتظرون عند بائع اللبن ، بل هي لا تكاد تراهم . ولو أنه اراها الرجلين الواقفين عند الباب لسألته :

ـ وما شأنهما ؟.

انهما كائنان بشريان حلت عليهما اللعنة ، فهو الآخر كائن بشري وهي أيضا كائن بشري حتى لو لم تعترف هي ذلك بينهاوبين نفسها والبشر !.

أيها الساقي !

كأسا اخرى .

كيف يكون ممكنا الاتستطيع توصيل مثل هذه الحقيقة البسيطة الى أحد ما ؟ وظل دقيقة كاملة يدرك شبح رجل يمشى رائحا غاديا فى الممر الجانبى ، ويلتفت فى كل مرة نحو الفتاة الجالســة الى المنضدة . وتعتزم أمرا وتنهض ، ولابد ان يلتقى الشبحان بعيدا فى البرد . . ويتهامسان ويمضى الرجل ويداه فى جيبه ، وتعود هى وقد شعرت بالضيق وتجلس فى مكانهـــا حيث لاتزال كأســـها أمامها .

والتقت عيناها بعينى أنطوان وفى اول الأمر لاتفكر فى ذلك .ثم تخطر لها الفكرة بعد ذلك ، وبعد أن تكون قد فهمت تلتفت اليــه وتهز كتفيها بطريقة خاصة ، ولهذا معناه ، وبدون أن يتسرب اليــه أى خوف من احتمال خطأ فسر اشارتها هذه بأنها تريد أن تقول :

ـ ان الاتفاق لم يتم ، يالسوء الحظ !.

كان هناك اتصال ، كانت هناك مشاركة فى شىء وجولى ترفض الاعتراف بها وقد تغضب لها ، لا لأنه ساحر يجرى وراء الحصــول على اجره فحسب ، بل هو قريب من بيته حتى انه فى ثيابه وفى هذا الوقت من الليل . قد يبدو خادما أو عازفا موسيقا أو عامل جمع التذاكر عند باب مسرح !.

وهو مسرور لأنه وصل الى هذا ، ويحب الآن ان يبعث السرور فى أحد ما ، وأخرج نقوده من جيبه وقال :

ـ كم ؟.

ثم يقول بهدوء فى شبه اشارة نحو الفتاة :

ـ أضف الى الحساب ثمن كأس لها .

وقد سمعت هذا القول ، وهن يسمعن كل شىء وعندما تمر بها وحقيبتاه متدليتان بيديه تشير اليه قائلة :

يوما ما على مدار الزمن سوف تفهم جولى وعندئذ سيكونان معا سعيدين !.

الفصـــل الثانى

لم يمش طويلا لأنه فى هذه الناحية بين شارع مونتمارتر وميدان الجمهورية صالون عند كل ناصية ، وقد نسى حساب الزمن وهــو يمر من دفء صالون الى الجو البارد خارجه ، والآن لم يعد هناك أحد على الأرصفة سوى رجلى بوليس بعيدين يسيران بخطى ثابتة .

كان هذا آخر بار حقا لأنه لم تعد هناك بارات بعده ، وهو البار الوحيد الذى يظل مفتوحا طوال الليل كغرفة انتظار فى محطة سكة حديدية وفيه الاضاءة نفسها والزخارف نفسها والأثاث الذى فى محطة السكة الحديدية ويخيم عليه جو العزلة نفســـه بل ان رواد البار يبدون كركاب قطار الليل الذين ينامون فى غرفة اســتراحة الدرجة الثالثة !.

وقد سبق لأنطوان أن نام فى أثناء سفره بأحد قطر الليل عندما كان ينقله الى فيرفييه ببلجيكا ، وكان الناس يخطون فوقه كل عشر دقائق ، ولكن هذا لم يحدث لجولى .

وهنا كان كل الفارق وسبب سوء الفهم . لقد كان أحيانايأخذها الى حيث تنام فى غرفة الانتظار المملوءة بالناس الذين تحاول أعينهم أن تخمن الى أين يقودهما مصيرهما ؟ ثم يتعلق كلاهما بالآخر وهما جالسان على الأريكة ويمسكان الملاءة الوحيدة التى يتغطيان بهـا، وكلاهما يريح رأسه على حجر الآخر ، وكانت رائحة التبغ ودخـان القطار ورائحة العرق تختلط برائحة البول ، وفى احد الأركـان أم تغير ثياب طفلها وهى تشعر بالخجل ، وقد انتابتها حالة عصبية دون سبب واضح لهذا .

كان من الضرورى لها أن تعرف ذلك ، أن تعرف أنه لا حل سوى هــذا .

أما هنا فى البار فليست هناك أجسام ممدودة على الأرض ،بل هناك رجل عجوز ذو شعر أبيض غزير ، وهو نائم على مقعد وظهره الى الجدار ، وقد ارتسم على وجهه المنهك البالى تعبير طفلى ،وهناك فتاتان لابد أنهما راقصتان بأحد النوادى الليلية ، وهما تغمســـان قطعتى خبز فى القهوة باللبن وامامهما بيضتان مسلوقتان .

لقد كان مخطئا بشأن غرفة الانتظار ، فهذا هو الرمز الحقيقى، وكاد يبكى عندما تبين ماذا ظل يبحث عنه جزءا من الليل . ولم يكن مافات جولى هو غرفة انتظار الدرجة الثالثة ، بل أكـــل البيض المسلوق فهى كانت تأكل البيض فى السلاطة أو بالسبانخ أو عـلى ذلك النحو الذى يحدث فى الرحلات الخلوية ، أما البيض المسلوق والذى له فائدة فهو ذلك البيض الذى تلتهمه فى الساعة الرابعـة صباحا ويداك من اثر البرد زرقاوان على حين أن قدميـك تؤلمانك

بعد أن تعد آخر نقود فى جيبك بين قوم تفـوه منهم رائحة الحيوانات المريضة .

ويأخذ واحدة فقد انقضت اعوام واعوام منذ ان أكل بيضة مسلوقة ، كما يأكل هذه البيضة الآن وهو واقف عند البار وحقيبتاه عند قدميه فتستقر عيناه على رجل فى الجانب الآخر من البار الذى على شكل حدوة الحصان ، وكان الرجل هو الآخر ينظر اليه وهو مثله يرتدى ثيابا سوداء ، ولكنها من قماش أفضل من قماش ثيابه ، وكانا متماثلين تقريبا فى السن وفى ارتفاع القامة وفى تكوين الجسم نفسه ، وللرجل الآخر شارب اسمر صغير ويده اليمنى ترتعد وهى ممسكة بكأسه على حين أن يده اليسرى تقبض على حافة البار كما لو كان يخشى السقوط .

وشعر بالخجل ، فمم كان الخجل ؟ ويود انطوان ان يذهب الى الرجل ويربت على ظهره فى اخوة طيبة ويقول له : انه ليس هناك داع للخجل ، وهو : هل يشعر بالخجل ؟ واخيرا يحدد نظره فى الشعار الذى يزين عروة سترته وهو شعار اللجيون دونير وبذلك تزداد حيرة الرجل وارتباكه .

ولابد أن للرجل زوجة بل وربما عائلة كاملة وشقة مريحة ويخشى أن يعرفه القادم الجديد ، ويداه نظيفتان انيقتان ويزين احدى أصابعه خاتم ذهبى كبير .

وقال انطوان بلهجة حزينة :

ـ كأسا من البراندى ! ولم يكن قد اكل أكثر من نصف البيضة المسلوقة .

وليس أنطوان جائعا وسيأكل بقية البيضة من حيث المبدأ لانها بيضة رمزية ، وقد حدث ذات مرة وكان ذلك منذ وقت طويل جدا أن أكل ثمانى بيضات .

وسأله الساقى :

ـ هل البراندى ممزوج بالماء ؟ .

ورد انطوان عليه : اذا شئتم .

واذا كان الساقى قد وجه اليه هذا السؤال من قبل كان رده عليه .. « اذا شئت » . فلماذا لم يعد قادرا على أن يقول :

ـ اذا شئت ؟ .

انه هنا يشعر بالطمأنينة ولابد ان جميع الذين في البار يشعرون الشعور نفسه بالرغم من معطفه النظيف وحذائه اللامع ، أما الرجل الآخر فلم يكن في الوضع نفسه ، بل كان يشعر بالخجل ومما لاشك فيه ـ انه في الغد سيشعر بتأنيب الضمير .

أما انطوان فلم يؤنبه ضميره ، لأنه لن يحدث له ثانية ما حدث له عقب الليلة التي قضاها في ميناء الهافر .

وهو يتجهم الآن لأن شخصا جديدا دخل البار وقتئذ يرتدي ثيابا أنيقة ، وسرعان ماوجه نظراته الى انطوان وهو يحاول التذكر، ثم يبتسم ويتقدم نحو أنطوان باسطا ذراعيه ويقول :

ـ صديقي أنطوان !.

وقال الرجل :

ـ لاتقل لي : انك لاتعرفني ! اذكر قهوة باكتا داجوبير .

يرجع ذلك الى ثمانية عشر عاما مضت على الأقل في وقت كان يحتاج الى عشرين فرنكا ، فيذهب الى قهوة باكتا حيث يقدم بعض العابه السحرية ، ولم يكن اسمه داجوبير حقا .

ـ هل ترى أني تغيرت جدا ؟.

ـ لا ، طبعا .

ـ قل لي الحقيقة ، اننا بخير ياأخي ، ولكنك أنت لم تتغير ويبدو أنك تحيا حياة طيبة .

كان من عادته البذاءة والسـخرية ثم أداء كل انواع الأدوار الكوميدية بما يتفق مع الذوق العام ، أماالآن فقد نقص وزنه كثيرا، ولكن ما يزال هناك ما يوحي بأنه كان بدينا يوما ما .

وقال وهو يمد يده الى ذلك الهرم المكون من البيض المسلوق

ـ هل تسمح لي ؟ .

ثم نظر الى الحقيبتين وقال :

ـ هل أنت آت من عمل ؟.

ـ ماذا تشرب ؟.

وكان غريبا أن تسمعه وهو يرد وفمه مملوء بصفار البيض ويقول :

ـ شيكولاته ساخنة اذا سمحت ، يبدو أن الحياه مواتيه لك. هل تزوجت ؟.

ـ نعم أنا متزوج .

ـ هل لديك أبناء ، نعم : ان عندى ولدين أكبرهما فى الخامسة عشرة .

واتجهت انظار أنطوان الى عروة سترة الرجل ذى الشارب الأسمر فوجد انه رفع الشعار من مكانه ، ولو رآه أحد على النحو الذى يبدو عليه الآن وقد خفض رأسه ، وأنفه فى الكأس لظن أن الرجل يصلى ، وربما كان يبكى أو يحاول البكاء !.

وعندما كان أنطوان فى ميناء الهافر بكى هو الآخر قبل وقوع ذلك المشهد الكبير .

ـ لا يمكن أن يخطر ببالك ما وقع لى .

وقال داجوبير هذه العبارة على نحو تكلف فيه ان يبدو ذلك بطريقة عابرة وهو ينظر نظرة جانبية واستطرد يقول :

ـ نعم وقد يقع لك أنت الآخر فأنت فى المهنة ، وربما وقع لك يوما ما ، فأنت تعرف مصير مهنتنا ، وربما جاز لك أن تقول انه لم يعد هناك عمل لأى شخص مهذب ؛ وقد عرض على بعد ظهر اليوم أن أعمل أسبوعا فى دار سينما فى نيفير فى فرقتها ووافقت ووقعت العقد وسأبدأ العمل ليلة الغد . . هل تدرى ؟.

وكان أنطوان يدرى ولكنه لم يقل ذلك .

وذهبت الى البيت فقالت لى زوجتى ببراءة : انها صرفت كل ما بقى فى البيت من نقود فى شراء حذاء للصبى .

وضحك الرجل الذى كان ممثلا هزليا يوما ما ضحكة الممثل الهزلى وقال :

ـ نكتة ؟ أليست كذلك ؟.

ثم قال بصوت عال وهو ينظر الى الحقيبتين عند اقدامهما :

ـ اظنك مستطيعا أن تقرضنى ثمن تذكرة السفر ؟ ولاتقرضنى شيئا اذا كان فى هذا مايضايقك فانى لااضايق اصدقائى . وأنت ترى ياصاحبى ان هذا العقد . . انه . .

واصبح صوته أجش وهو يمسح خلسة دموعه ، وهى دموع مسرحية ، ومع ذلك فهى دموع أكثر انسانية من دموع جولى ، وسيقول أنطوان لها ذلك ، ومن الضرورى أن يطلعها على هذه الحقائق .

وقال أنطوان للساقى :
ـ كأسا أخرى من البراندى .
ثم وجه حديثه الى صاحبه :
ـ هل أنت واثق من أنك لن تشرب البراندى معى ؟.
ـ لأدخل السرور الى نفسك فحسب ، وانى أقول لك كل هذا لأننا أنت وأنا كما تعلم ...
ـ طبعا ...
وقدم له المظروف الذى يحتوى على كل الأجر الذى حصل عليه فى بورج لاريبه ، ولم يكن قد فتحه ، ان هذا سوف يغضب جولى ، ولكن بعد أن يشرح لها المواقف ستفهم كل شىء على الفور .
ـ ألن تغضب زوجتك ؟.
لماذا فكر داجوبير فى زوجته على حين أنه لايعرفها حقا ؟ ورد أنطوان :
ـ بلى لاتزعج نفسك .
ـ حالما أصل سأتصل بك تليفونيا ، هل لديك تليفون ؟.
ـ نعم لدى تليفون .
ـ هل اسمك فى دليل التليفون ؟.
ثم أخذا يضحكان .. دون أن يعرفا سببا لضحكهما كما لو كان وجود اسمه فى دليل التليفون نكتة بارعة !.
ـ تحياتى !.
ـ تحياتى !.
وأخذ شاب نحيف انسدل شعره الكثيف على قفاه وهومستند بكوعه على البار وهو يشرب القهوة ومن المؤكد أنه لم يأكل قط ـ أخذ يحدق النظر فى البيض المسلوق كما لو كان منوما تنويما مغنطيسيا ، ولكن أنطوان لم تكن لديه أعصاب للاحتمال !.
وسأل أنطوان صاحبه داجوبير :
ـ هل تأتى الى هنا كثيرا ؟.
ـ بين الحين والحين .
ـ أين تقيم ؟.
ـ فى مدينة تيرن .

وجاء أوان الرحيل ، وفى آخر مرة عاد فيها متأخرا الى البيت وجد جولى مريضة ، ولم تفتعل هذا المرض ليعطف عليهـــا ، وفى الصباح التالى اضطر لاستدعاء الطبيب الذى تحدث حديثا خطيرا من الأعصاب والقلب ، صحيح أن أمها أيضا كانت مصابة بمـرض فى القلب ولكن هذا لم يمنع أن تعيش حتى تبلغ الثانية والسبعين من عمرها وظلت حتى آخر أيامها وكان ذلك منذ ثلاثة اعوام مصدر النكد فى حياتهما .

ـ هل هناك شيء ؟.

ـ كلا . .

ولم يصدق داجوبير ذلك ، ولكن لما كان قد حصل على المظروف واطمأن عليه فى جيبه فان الأمر لم يعد يهمه . ونظر الى الكأسين الفارغتين نظرة فيها طفولة . وقال انطوان :

ـ كأسين من البراندى .

وربما كانت هذه الكأس أكثر مما يجب له ، فقد كان قبلها أحسن حالا . وكان ملائما بين نفسه والظروف المحيطة به ، لم تكن هنـاك صلة له بما يحيط به ، بل انه لم يعد يفكر فى هذا الآن ، وكان من الممكن ان يقسم على أنه قد أفاق واصبح يرى الأشياء بجلاء ، وهو أمر يبعث على الحزن .

مثلا عرف صديقه القديم ـ وربما كان كل عـدد المرات التى التقيا فيها عشر مرات . وربما لم يكن متزوجا ، أما عن قصة التحاقه بالعمل فى نيفير فقد سمعها من قبل عدة مرات .

وحدق الرجل الذى كان يزين عروة سترته بالشعار ثم أزاله ـ حدق النظر فيه متحديا : لماذا ؟ وذهب الشاب النحيف الى ناحية السوق وربما وقف هنا بالقرب من السيارات . وذهبت الراقصتان الى بيتهما لتأويا الى فراشهما ، وكانت هناك امرأة عجوز قد دخلت البار الآن وهى امرأة بدينة وقذرة ومخمورة فعلا ولابد أنها كانت تبيع باقات البنفسج عند أبواب الفنادق التى أوشكت أن تغـلق والنقود فى جيوب مئزرها .

انه لاينسى حقيبته ولم يسبق له ان نسيها قط طوال حياته ولا حتى وهو فى ميناء الهافر .

ـ هل اساعدك فى حمل احدى الحقيبتين ؟.

ـ كلا ، واشكرك فقد تعودتهما .
ـ الا تنتظر قطار السكة الحديدية الفرعى ؟.
ـ نعم بل سأركب تاكسيا .

وتبين أنه أخذ يترنح ، وان حركاته لم تعد دقيقة محكمة، ولكن هذا كله أمر يتعلق بالجسد ، ولا أهمية لما يحدث للجسد نتيجة للكحول مادام ذهنه صافيا ، والدليل على ذلك أنه عرف أن سائق التاكسي روسي وانه تذكر عمليات الاصلاح التى تجرى فى شارع هوسمان .

ـ شارع دارو أمام الكنيسة الروسية . هل تعرفها ؟.
ـ نعم .

وليس هناك سبب يمنع جولى من ان تفهم ، فهى تحبه ، وهذا أمر مقرر لاشك فيه . ونتيجة لهذا يجب أن تبذل جهدها لتضع نفسها مكانه . وهو الآخر يحبها بل أكثر مما تحبه هى ، وهو لا يحصى عليها اخطاءها بل هو على عكس ذلك تماما ، من هنا يجب أن يبدأ فيوضح لها أنه يحبها بسبب أخطائها وان اخطاءها هذه هى التى تجعلها انسانة .

وسأل سائق التاكسى :
ـ هل أنت متزوج ؟.
ـ انا جد .

انه لايرى أى أضواء فى نوافذ شقته ويخــرج حقيبتيه من التاكسى أولا ثم يضعهما على الرصيف ثم يمشى نحو الباب الكبير ويضغط زر الجرس النحاسى ، والبيت مسئول الى حد ما فهو يكرهه وطالما كرهه فهو ملىء بالكبرياء حتى البواب !.

واضطر الى ضغط زر الجرس مرتين ووضع احدى الحقيبتين على الأرض عند الباب وصدر عن ذلك صوت ضايقه وتلعثم وهـو ينطق اسمه وتجاهل المصعد ذا الضوضاء ، وصعد السلم على أطراف أصابعه حتى الطابق الثالث .

وفتح الباب بسهولة مما كان دليلا على أنه غير مخمور . ولقد كان من عادة جولى أنها تترك مصباح الكهربا الصغير فوق البـاب مضاء عندما يخرج انطوان فلم يكن فى حاجة الى اضاءة المصابيح

الاخرى ، وخلع ثيابه قبل دخوله غرفة النوم واستطاع أن يندس في الفراش دون أن يتعثر في شيء !.

ولما كانت نائمة فانه سيكلمها في الصباح وسيستمتعان كل الوقت ، وما عليه ان يقوله حاضر في خاطره ، وهو حزين لغير ما سبب ظاهر ، وربما كان آسفا لنفسه وربما كان اسفه لها وربما كان هذا الأسف لجميع البشر الذين من اجل العيش بضعة اعوام لاتستحق هذا العيش يؤذي بعضهم بعضا . ومع ذلك فهو يشعر أن الامر يجب أن يكون سهلا فهو لايتطلب أكثر من ..

وتكاد جولي تلتهب من الحمى ويتساءل : هل الحمى قداصابتها وبوده أن يلمسها وأن يقبلها ، ولكنه يخشى ايقاظها فهولايمسك عليها شيئا أي شيء على الاطلاق ، ولن يمسك عليها شيئا بل هو يفيض عاطفة نحوها الى حد أن عينيه تذرفان الدموع من أجلها حتى ولو كان ذلك الرجل الذي خدعه منذ لحظة يضحك منه الآن ، وحتى لو كان ذلك الرجل قد بدأ منه العطف عليه !.

وهو يسمع صوتا ضعيفا فوقه ، وهذا الصوت بدوره يملأ قلبه حرارة غامضة ، انه صوت خطوات امرأة عجوز تمشي واضعةقدميها في شبشب غرفة النوم تقوم من نومها عشر مرات كل ليلة لتقدم لزوجها الدواء وقد قيل لها : ـ انها ان نسيت أداء هذا الواجب ليلة واحدة مات هذا الزوج اذ هو كالمصباح الذي لابد من اعادة ملئه بالزيت . وقد ظل اللهب يتذبذب عدة أشهر ، وهو يكاد يكون ميتا ولا يعرف ذلك اذ هو لايدرك شيئا ولايستطيع أن يتحرك أو أن يتكلم وتتلفت عيناه فيما حواليه وفيها نظرة خائفة هي نظرة الطفل الحديث الولادة ، وكل ما لديهما من مال قليل لا يكاد يكفي أكثرمن ابقائهما بين الأحياء . ولخوف الزوجة من ازعاج السكان الآخرين تمضي في تنقلاتها كالفأرة كما لو كانت تعتذر عن بقائها حية تتحرك !.

وهو يستطيع الآن أن يسمع تنفس جولي ولكن هذا التنفس لا يبدو كما كان شأنه من قبل ، ثم يسعل بطريقة خاصة واذ يسعل يرفع راسه عن الوسادة ويظل ساكنا بلا حركة يحبس انفاسه ويدرك هزة خفيفة في الفراش !.

ويرفع عنه غطاءه ويبسط يده الى زر النور ويقول :

ـ من ذا الذي يبكي ؟..

وقد دفعه الخوف من ايقاظها الى استبقاء قميصه والى عدم العناية بنظافة اسنانه ، وكان كل ما استطاع أن يراه هو الشمس الاشقر الذى اشتد شحوبة الى حد أنه عندما يستحيل لونه الى البياض لايمكن ادراك الفارق بين الحالين .

ويكرر قوله في قلق :

ــ هل تبكين ؟.

وقالت له بدون أن تتحرك أو أن تكشف عن وجهها :

ــ أضيء النور من فضلك .

قولى لى : لماذا تبكين ؟.

لابد انها ممسكة بمنديل تضعه على فمها تحبس به نحيبها من أن ينفجر ، وظهرها يرتفع وينخفض فى رتابة ، وكان قد جلس فى الفراش وبدأ كل ما يحيط بهما وكل الأشياء المألوفة والأثاث وقد تجمد .

ــ هل ترفضين الرد على ؟.

ــ ارجوك يا انطوان .

ــ أنا أطلب منك الرد على قولى : ماذا هنالك .

ــ نم انت يا أنطوان .

ــ اسمعى ياجولى .

ــ ارحمنى !. .

ــ كلا فأنا أريد أن أرى وجهك .

وتهز رأسها بالنفى . .

ــ هل تسمعين ؟ أنا آمرك أن ترينى وجهك .

ــ أتوسل اليك !.

ــ هل ترفضين ؟.

ومع ذلك فلم يرفع صوته ، وهى خائفة وتكشف وجهها وفى عينيها فزع .

ــ ماذا يخيفك ؟.

وتعض شفتها السفلى ويتلوى جسدها كما لو كان الألم ينهشه .

ــ قولى لى ماذا يخيفك ؟.

ولو رآها أحد وقتئذ ولم يكن يعرفها من قبل لرأى أنها لا تعرفه .

ـ لماذا تنظـرين الى هكذا ؟ ماذا يبدو لك منى غير عادى ؟ لم اقل لك شيئا .

ـ ارجوك مرة اخرى يا انطوان ..

ـ اظنك تتصورين انى كنت اشرب الخمر !.

هذا غير معقول ، ولم يكن يقصد أن يقول ذلك اطلاقا ، وحاول أن يستجمع قواه .

ـ هل تظنين انى مخمور ؟ كلا فلم يحـــدث الليـــلة شيء من هـــذا .

ـ انطـــوان ..

وهى تبدو اكبر سنا منها فى العادة ، وقد ظهر احد ثدييهاتحت قميص النوم وبدا فيه ترهل السن ، وأثار هذاالمنظر عطفه عليهافهو يحبها وكل مايجب عليها أن تفعله هو أن تنصت فى هدوء بدلا من أن تبتعد عنه .

لماذا اذن كلما بسط يده اليها ليدير وجهها نحوه تغطى وجهها بكلتا يديها كما لو كان على وشك أن يضربها ؟.

أنه لم يضربها قط طول حياته سوى مرتين ، ولكن هذا أمر يختلف كثيرا ، أما اليوم فهو هادىء ضابط لنفسه ولم يعد مستطيعا البقاء تحت الغطاء اذ هو فى حاجة الى الحركة .. الى المشى .

ـ أين انت ذاهب ؟.

هل تصورت أنه خارج ؟ هكذا تخطر الأفكار للمرء اذا لم يعرف الدوافع الحقيقية .

ـ لست ذاهبا واذا لم اخطىء الظن فانك لم تنامى وظللتطول الليل يقظى مشغولة الخاطر بشأنى ، فهل هذا صحيح ؟ تكلمى .. قولى شيئا وربك .

وتتمتم قائلة :

ـ لم استطع النوم ..

ـ انت على صواب اذن ، وعليك أن توجهى اللوم الى لأن الفلطة غلطتى أنا ، وأنت ترينني وحشا .

ـ عد الى فراشك ياانطوان والا اصابك البرد .

وهو متعطش لا الى الرذيلة بل يشعر بحاجته الى شىء يشربه ولديهمادائما زجاجةمن الروم فى دولاب المطبخ، وهو لا يتوقع أن

تسمح جولى له بذلك ولكنها لا تتحرك ولا تنفعل بل تستمر فى البكاء وعيناها الى السقف ووجهها يتقلص كما يفعل وجه الطفل اذ يبكى فى الشارع .

ـ أنت تعلمين أنى انما اشرب جرعة واحدة كعلاج لمعدتى وتستطيعين رؤية ذلك بنفسك ، ولست مخمورا ، ألا ترين أنى الليلة غيرى فى أية ليلة اخرى ، اذ أنا فى حاجة الى التفكير ؟..

ـ هل تصر على الاستمرار فى الكلام ؟..

ـ لأنك لا تريدين الانصات لى .

ـ لم اقل ذلك .

ـ وماذا قلت اذن ؟..

ـ ما جدوى أن يؤلم كل منا الآخر كما حدث فى ميناءالهافر ؟.

ـ أولا اريد أن أوضح لك أن ما حدث فى ميناء الهافر كان بسببك ، صحيح اننى اعتذرت لك فى الصباح التالى مدعيا انى السبب .

ـ لقد أقسمت .

ـ لأنى خفت أن تصيبك النوبة .

ـ ألم تكن تعنى ما قلته ؟.

هل كانت تلك الكلمات حقا هى ما أتيحت الفرصة لقولها تلك الليلة ؟ ولقد كان من الممكن أن يصر على العكس بحسن نية لأنه كان دائما حسن النية ، ولم يشأ ان يكون المتكلم وحده ولا أن يكون مصدرا للأحكام ، بل كان مقتنعا بأنه سيد نفسه وأن كل كلماته مستوحاة من حبه ومن حكمة عقله .

ولم تفته ملاحظة أن مخاوف جولى قد سيطرت عليها ثانية عندما ارتدى ثوب النوم لأن هذا بين لها أنه استعد للنوم . ووضع زجاجة الروم على البوفيه ، ولم يكن قد جاء بالكأس من المطبخ ولم يرد أن يشغل نفسه بالذهاب الى المطبخ والعودة منه ، بل أراد أن يشرب من الزجاجة رأسا جرعة بعد أخرى ليذهب عن نفسه الشعور بالتعب .

أليس له الحق فى أن يشعر بالتعب ؟.

ويجب عليه ان يتماسك فان هذا امر ضرورى لما لتبادل الايضاحات بينهما من اهمية كبيرة ، بل انه رائع .

ـ انك ترين يا عزيزتى ما يغيب عن بصرك احيانا .

ولقد كانت هناك أشياء كثيرة تغيب عن بصرها ، فعن أى هذه الأشياء كان يتكلم ؟ كانت فى حاجة الى أن يقول لها الحقيقة مرة واحدة وأن يقولها بهدوء وبدون ضجيج ، ولا ضير فى سماع الحقيقة .

لماذا لا تقبل هى الحقيقة ؟.

هل قالت شيئا ؟

انها ستقول فيما بعد .

ـ لم أقل شيئا بل ظللت انت تتكلم وحدك مدة ساعتين .

وتزعم فى كل مرة ذلك ولكن يفوتها أن تذكر أن لها طريقتها الخاصة فى ضبط نفسها والنظر اليه مادام يتكلم ومهما طال كلامه. وحتى فى سكوتها واغماض عينيها كانت مقاومتها لما يقوله واضحة بل لقد كانت هذه المقاومة عداء .

هذه هى الكلمة ، ففى لحظات كهذه اللحظة كانت مقاومتها له بل أصبحت عدوة له ، لم يعودا شخصا واحدا وأخذت ترى فيه شيئا آخر خارجهما ، ترى فيه شخصا غريبا !.

ـ ليس لك الحق فى أن تفعلى ذلك ، هل أنت منصتة لى ؟..

وقال بعد ذلك :

ـ هل تحسنين الى بالانصات لى ؟.

كان ذلك مفهوما وليس فيه مبالغة ، كانت تحسن اليه كما أحسن هو الى داجوبير وليس هناك من فارق الا فى أن احسانها اليه احسان معنوى ، هذا هو ما استنتجه ، كانت آسفة له وكانت تحاول بحيلها الساذجة كتلك الحيل التى تستخدمها مع الأطفال لتغريه بالعودة الى الفراش ، ولما لم تفلح فى ذلك ذهبت لتأتى له « بالشبشب » على حين انها حافية القدمين فوق الأرض اللامعة!.

ـ هل تفعلين ذلك لغرض ما ؟.

ولم يكن يجدى تظاهرها بعدم الفهم ، وكان يعرف أنها تفهم فقد انقضى وقت طويل عليهما معا .

وفضلا على ذلك فانه لم يكن يغضب لهذا ، وفى وقت كهذا تصبح هى فى حاجة الى أن تبدو هكذا مثيرة للشفقة الى حد تبعث معه من يراها دون علم بها الى الظن بأنها امرأة غاية فى الشقاء !.

ولكن من منهما الشقى ؟ من منهما الذى يستسلم لصاحبه ؟ من منهما الذى يضحى بنفسه للآخر دائما ؟.

كان هو دائما الذى يشقى ويستسلم لها ويضحى بنفسه لها دائما .

لتعترف هى بذلك ولتبذل مجهودا فى هذا الاعتراف ،ولتوفر عليه على الأقل ذلك الدور المؤلم وكل شىء يصبح سهلا .

وهناك أمر تفصيلى بسيط فى وسط الجملة التى كان يقولها ـ لم يعرف اى جملة كانت تلك الجملة ؟ ولكنها كانت جملة هامة ـ اذ اشارت الى السقف فى توسل كما لو كان من الضرورى أن يتشفع السقف لها ، أو كما لو لم يكن انطوان يعلم ان المرأة العجوز التى فوق فى حاجة الى النوم . لقد كان هو وحده الذى يعانى ولو اهتمت جولى بالمرأة العجوز فوق فان سبب اهتمامها مرجعه الى أن تلك المرأة العجوز كونتيسة فقدت كل ثروتها .

ولو قال انطوان : انه اعطى ذلك الممثل الهزلى سابقا الذى لم يكن يعرف اسمه كل أجره للامته على هذا العمل ، واعترضت عليه عدة اعتراضات منها أنها فى حاجة الى ذلك المال لشراء بعض الحاجات .

وهناك كان اثنان فى الغرفة المغلقة الشديدة الحرارة والغارقة فى اضاءة وردية دخلت من النافذة ، وبدأ العمال يذهبون الى عملهم فى الشارع : اثنان يحاولان تسوية ما بينهما حتى يجعلا الحياة أيسر واجلى ، فهل هذا هو الأمر ؟.

وفى الغد ستؤكد له أنها لم تفتح فمها وأنه كان وحده يكافح اشباحا .

ولكنه لم يكن رجلا تسكن الأشباح جسده .

ـ اسمعى . انى أفعل كل شىء لأجعلك سعيدة فلماذا لاتقدمين على تضحية يسيرة جدا ؟ لماذا لا تحاولين رؤية الأشياء بمنظارى؟.

فهل طلبت منه أن يقول لها : انه شقى حقا ؟ ربما فعلت ذلك بكلمات قليلة جدا ، وربما لم تقل شيئا ، وليست هى بالكاذبة أو بالتى تكذب ، بل كانت تقول الحقائق بطريقتها الخاصة ، اذ كانت لها طريقة خاصة فى النظر اليه تبدو فيها متسائلة عدة أسئلة ؟ وكان له الحق فى الرد على تلك الأسئلة التى لم توجه اليه فى صورة كلمات .

ـ أنا شقى ان شئت أن تعلمى ذلك ،شقى الى حد أنه لن يذهب هذا الشقاء عنى سوى رحمة من رحمات السماء !.

كان غريبا ما بدا له من أن العالم المحيط به قد فقـــد تكامله وصلابته حتى جسمه هو نفسه لم يعد له وجود على حين أن عقله أصبح أشد يقظة منه قبلا ، وأصبح لا يكاد يدرك أنهمـــا الآن فى غرفة نومهما وانهما بين الأحياء.

وكان يوازن بين أفكاره التى بدت له براقة كمـــا لو كانت من المعدن ، ويضع صورة فوق أخرى حتى أصبحت شيئا منظورا غير مرجو فعلى حين فجأة مثلا صورة الرجل ذى الشارب الأســـمر والميدالية برزت أمامه واضحة وهى دلالة أدهشته .

وتكلم عنه فى قوة لجولى لأنه فى حقيقته أخوه كمـا كان فى الوقت نفسه تصويرا لحالته . والآن لم تعد مســـتطيعة ان تزعم انه يدافع عن قضيته لأن هذا الموضوع غير شخصى على الاطلاق .

وكانت هذه مسألة مبدأ على كل حال ، وكان يؤكدها كمبدأ ، وعلى حين فجأة ابتسم راضيا وسلم لها بأن هذه الحجة قديمـة قدم التلال ، وهى النزاع السرمدى بين الرجـل والمراة بين آدم وحواء .

ـ لمـاذا لا نكون أنا وانت استثناء من هـذه القاعدة العامة ؟ أجيبى عن هذا السؤال ، اتوسل اليك أن تجيبى . اذا عـرفت سببا وجيهـــا فالوقت الآن أنسب مايمكن أن يكون لذكر هـــذا السبب . الا اذا رأيت أن عقليـــة ترافو هى أســـمى ما تكـون العقلية .

وكان ترافو هو اسم سرى جولى قبل الزواج منه . كان اسم أبيها الذى ظل ثلاثين عاما يدير صيدلية عند ناصية شارع كورسيل وشارع باتنيول ، وكان اسم حماته العجوز التى شـــاركتهما فى مسكنهما فى أثناء السنوات الاولى من الزواج ، عالم عدائى فيه كل شىء يكرهه فى جولى ، كل شىء حاول مخلصا أن ينتزعه من تفكيرها وهو عقلية ترافو .

ـ عندما تهضمين ما أقوله لك بهدوء وفى عطف ســـتلقين بنفسك بين ذراعى وستبتسمين لى ، ربما تبكـين قليلا ، ولـكنه بكاء مريح طيب و ...

ولـكنه هو الذى بكى ، ولابد أن زجاجـة الروم قد فرغت عندما ألقى بنفسه على الفراش بدون أن يخلع ثيابه وأخفى وجهه فى الوسادة وأخذ ينتحب .

ثم رأى نفسه فى الحمام بدون ثوبه وليس عليـــه ســوى قميصه الذى كان يرتديه طوال يومه ، ولابد أن يكون النهار قد طلع فى الخارج لأن ألواح زجاج الحمام المغطاة ببخار الماء أصبحت بيضاء كالثلج وربما كان الثلج يتساقط فى الخارج ، ولو حدث هذا ما أثار دهشة فقد كان الشهر هو شهر يناير .

لم يكن واثقا ولــكن كانت لديه فكرة فأســـقط على أرض الحمام كوب المـاء الذى كانت زوجته قد قدمته له .

وفى تلك اللحظة شعر بالضيق بدنيا ومعنويا وسيطر عليــه خوف غامض وفى الوقت نفســـه كان رأســه يؤلمه كما لو كان فيه جرح مؤلم .

ـ ارقد ، ونم ، ولا تفكر .

وسمعها وهى تمشى على أطراف اصابعها ، وأحس بدوار فى رأسه يكاد يفجره ثم سمع صوت بائع الصحف عند ناصية شارع سانت أونوريه .

وعرف مرة أخرى من هو ! وأخيرا امتدت يده فى حـــذر الحيوان الذى يتحسس جحره قبــل أن يبرحه امتدت يده الى مكان جولى من الفراش ، ولـكنه لم يجــد سوى ملاءة الفراش وهى باردة ثم سرت البرودة نفسهـــا الى عموده الفقرى ثم الى عنقه وانكمش فى خوف وجذب الغطاء فوق رأسه .

ولم يتبين أنه قد عاد الى النوم .

الفصل الثـالث

وصلت اليه رائحة القهوة فى أثناء نومه ومنحته وهما مؤقتا بالرفاهية والسلام ، ولقد كان يومه دائما يبدأ بهذه الرائحة .

ولم يشعر بأى ألم وهو راقد بلا حركة كمـــا لم يشعر بأى صداع ، بل كان فى الواقع يشعر فى جميع أنحاء جسده بحساسية خفيفة ، ولكن أدنى حركة فى ذلك الجســـد كانت توقظ الألم

والدوار فى راسه .

وخشى العودة الى الحياة وتعمد أن يروح فى سبات عميق يمنحه مهلة لارجاء اليقظة ، ولم يتذكر بعد تفصيلات ما حدث فى الليل ، ولم يشأ أن يفكر فيها ولم يدرك سوى الاكتشافات المؤلمة المذلة التى فى انتظاره .

وفى الأيام الاخرى لم يكن يشم رائحة القهوة وقت سماعه ضوضاء الشارع ، لابد أن يكون الوقت قد تأخر به ، اذ كان يسمع اجراس الكنيسة التى فى مواجهة بيته وهى تدق عدة دقات .

ولم يكن يسمع صوت حركة جولى فى الشقة ولم يكن هناك اى صوت فى المسكن ولا أية حركة ، وعندما حاول فتح عينيه قليلا آلم عينيه ضوء النهار الشديد دون أن يكون مستعدا له ، فأدرك وهو مضطرب أنه فعل شيئا لا علاج له ، ورفض التفكير فى هذا الشيء لأنه لم يكن فى حالة تسمح له بمثل هذا التفكير ، بل كان فى حالة تتطلب منه المزيد من الندم .

وحتى كان احتكاك ساقيه العاريتين بالغطاء يضايق أعصابه كما يحدث عند الضغط باللسان على سن مؤلمة ، انه فى طريقه الى المرض ، وكان هذا أمرا قوى الاحتمال بل ربما كان مريضا بالفعل وهذا أسهل الحلول . وكان يرجو لو أن مرضه كان كافيا لاستدعاء طبيب ليصف له الراحة التامة .

ونام ثانية عندما استبد به اليأس ، نام نوما اقل ازعاجا وأكثر راحة من النوم الآخر ، وعندما عاد الى الحقيقة حلت رائحة الحساء محل رائحة القهوة ، وتقاطرت الدموع من عينيه كما لو كانت رائحة الحساء هى السعادة التى ستنتزع منه .

ولم يحدث من قبل قط ان احب انطوان طريقتهم فى الحياة كما أحبها هذا الصباح ، ولا هو احب هذه الشقة مثلما احبها هذا الصباح وان كانت هذه الشقة من قبل مسكنا لامرأتين : أم وابنتها قبل أن تصبح مسكنا له ولزوجته ، ولقد كانت غرفها شبه مظلمة كبقية غرف البيت . وقد تعود أن يصف الضوء فيها بأنه ضوء معتم ، ولكن هذه العتمة لم تكن حزينة أو مضايقة بل كانت تضفى على الحياة الاحساس بالطمأنينة كالحرارة التى كانت جولى

تبقيها مستعرة فى الشقة برغم انها هى نفسها كانت امرأة باردة الاحساس .

وتمر الساعات الواحدة تلو الاخرى وهما يقومان بأعمالهما العادية فى البيت تلك الاعمال التى تبدأ بقراءة صحيفة الصباح وأكل الخبز الطازج وشرب زجاجة اللبن التى تأتى بها جولى من أمام باب الشقة قبل أن توقظه فى الصباح ، وتستمر هذه الاعمال حتى يجىء المساء ، فاذا لم يكن لديه عمل يذهب للقيام به يأخذ فى القراءة وهو فى فراشه على حين تأخذ جولى فى خلع ثيابها وترتيب شعرها .

وليس صحيحا أنه كان شقيا ، ولم يشأ أن يتذكر ذلك .. اذ شعر بالخجل ، وفضلا على ذلك فانه لم يتذكر كل شىء ، انه لم يتماد الى الحد الذى تمادى اليه فى الليلة التى قضياها فى ميناء الهافر ، ولكنه أحس انه تكلم فى هذه المرة أكثر مما تكلم فى تلك المرة السابقة لأنه أحس بالهدوء وصفاء الذهن ، كيف أمكن أن يخدع نفسه بهذا ؟ هل تصورت جولى أنه صافى الذهن ؟.

وفتح عينيه قليلا وخاطر بالقاء نظرة على البوفيه وشعر بالراحة اذ لم ير زجاجة الروم هناك ، ولم يكن واثقا من انه اتى على كل ما فيها ، بل كان يحس أن الزجاجة كانت شبه مملوءة عندما اتى بها من المطبخ ، وكم من الوقت ظل مستيقظا ؟ ربع ساعة ؟ ساعة ؟ .

وكانت ذاكرته مملوءة بالفجوات وكان أكثر ما يتذكره هو التفصيلات المذلة المهينة ، فالرجل ذو الميدالية التى تزين عروة سترته مثلا ، لعله موظف مدنى أو شىء من هذا القبيل من غير شك ، وأشار اليه بعبارة « الأخ » واستمسك بذكرى الرجل الآخر ، ذلك الممثل الهزلى الذى خدعه أبسط وأرخص خدعة .

وقد آلمه كل هذا ، وأرهف أذنيه ، وكانت جولى قد تركت باب غرفة النوم مواربا قليلا بحيث تسمع نداءه اذا هو ناداها ، وكان هناك صوت ملعقة تدور فى صحن الحساء بانتظام وسرعة ؟ أفهل كانت زوجته جالسة فى المطبخ بلا حركة ترقبه ، الا تزال تبكى ؟ .

وشعر بالميل الى النوم ثانية كما يفعل الجبان ليؤجل مواجهتها الى مابعد ، ولم يستطع أن يتذكر انه فكر من قبل فى حياتهما معا بمثل هذه الرقة ، وشعر بحرارة العاطفة تغمره ، ولولا ذلك الفتى المديد القامة الذى انبعثت منه رائحة البيرة لكان الآن جالسا فيما كانوا يسمونه « مكتبة » وهو غرفة النوم السابقة لحماته واعيد تنظيمها بعد وفاتها .

ولقد كانت غرفة ظل يحلم بها طوال حياته ، فأخذ يغطى جدرانها بالأرفف التى قاس بالدقة كل ما يمكن ان تتسع له ، ووضع فى وسط الغرفة مكتبه الذى يحرر عليه رسائله ونشراته الدورية الكثيرة التى كان يرسلها بالمئات بدلا من الالتجاء الى وكالة دعاية .

وكان يقوم شخصيا بابتكار وضع أدوات عمله السحرية فوق منضدة خشبية فى الغرفة نفسها وبجوار النافذة ، وكان بارعا فى ذلك الى درجة العبقرية ، وقد ابتكر مجموعة كاملة من الحيل الخاصة والألعاب السحرية المبتكرة ، وكان بعض هذه الألعاب يحمل اسمه ، ومنها « القفص المسحور » الذى كان يباع فى شارع سان مارتن .

وتظل جولى طول فترة الصباح فى حركة دائمة حتى اذا دخلت مكتبه التزمت الصمت لتتيقن أنه لا يقوم بعمل دقيق وعندئذ تقول له : ماذا سيتناولانه من طعام فى الغداء ، وكانت أحيانا تجلس فى ركن تقشر الخضر .

وشعر بالعطش ولو انه قام من فراشه ليحصل على كوب ماء من الحمام لسمعت صوته ولم تكن هذه هى الطريقة الواجب اتباعها لبدء الحديث بينهما ، وفضل أن يسعل بصوت خافت وأن ينادى بصوت رقيق متواضع .

— جولى ! ..

وناشدها ان تحضر ، وساوره الخوف وقتئذ من أن تكون قد هربت الى الأبد ، وأخيرا سمع وقع خطواتها ورآها فوق عتبة الباب وهى لا تزال بثياب النوم وعليها الروب دى شامبر ، ولم تكن عادتها أن تفعل ذلك ، وكانت شاحبة اللون ، ولكنها ابتسمت

له ابتسامة حاسمة ، توحى أن حياتهما اليومية مستمرة .
وسألها : هل تأخر بنا الوقت ؟ .
وأجابت : نحن فى منتصف الساعة الثانية .
وكان يبدو له ان الساعة لم تتجاوز منتصف الثانيـة عشرة ظهرا وكان ردها هذا قد زاد موقفه سوءا .
وقالت له :
ــ سآتيك بفنجان القهوة .
وكان على وشك أن يستدعيها اليـه ويمسك يدها ويسألها الصفح ، ولـكن الأمر يجب أن يجرى على غير ذلك ، فقد كانت هى فى جانب الصواب ، وعندما جاءت بالقهوة التى لابد أن تكون قد سخنتها فوق ركن الموقد ، لم يكن هناك سوى السواد المحيط بعينيها وشحوب لونها للدلالة على ما حدث فى الليلة السابقة .
ــ هل أنت جائع ؟ .
ــ لست جائعا الآن ! هل كنت مريضا ؟ .
ــ لقد شاهدت ما يدل على المرض .
ولم يكن واثقا مما حدث على وجه الدقة ولهذا سألها :
ــ هل كان ذلك فى غرفة النوم ؟ .
ــ فى غرفة النوم وفى الحمام .
ــ أنا آسف .
ــ لست أنت المسئول عن ذلك .

ولقد آلمه ان يسمع هـذا الصـوت الخـالى من الصـليل او الانحراف وبسط يده ليمسك بها يدها ، ولكنها كانت أبعد من أن يصل اليها ولم تتقدم نحوه .
ــ جولى !
ــ نعم ! .
ــ هل أنت غاضبة جدا على ؟ .
ــ ليس ثمة داع لأن أغضب . .
ــ ألم اكن أحمق ؟ .
ــ نعم بالتأكيد .
ــ اعترفى لى . ألم اقل عبارات مجنونة ؟ .

ـ لقد قلت ما كنت تفكر فيه .
وعلى حين فجأة شعر انه لم يعد مستطيعا الاحتمال اكثر مما احتمل فرفع عنه غطاءه ، ووقف على قدميه واحس انه يبدو سخيفا بساقيه العاريتين ، ومضى الى حيث أخذ ثوب النوم من المشجب وقال :
ـ اسمعى يا جولى .
ـ أليس الأفضل لك أن تبقى فى الفراش ؟ .
ـ اتوسل اليك ، لا تتكلمى هكذا ، انك لا تستطيعين تصور كم يؤلمنى هذا ، فانى أشعر وانا أسمع صوتك ان امرأة غريبة واقفة امامى وليست زوجتى ! .
ـ زوجتك ؟ .
وكانت قد نطقت هذه العبارة بسخرية شديدة .
ـ طبعا زوجتى .
ولم يستطع الانتظار طويلا فى هذا المشهد ، وآلمه سخف موقفه ، وكان هناك ما هو أسوأ من ذلك وهو ذلك الصداع المؤلم فى رأسه والتقلصات الشديدة فى صدره ، وأحس كما لو ان قلبه على وشك التوقف عن النبض .
ـ اسمعى .. اننا لم نعد طفلين بل نحن ناضجان نحن الاثنين لقد اضطررت الى الشراب فى الليلة الماضية و ..
ولم يكن هذا صحيحا ، واشعره الكذب بالضعة .
ـ وأنت تعرفين انى حينما أبدأ الشراب لا أستطيع التوقف ، وقد قابلت بعض الاصدقاء القدماء .
ـ داجوبير .. لقد حدثتنى عنه .
ـ ألا يحزنك هذا ؟ .
ـ كف عن الكلام يا انطوان ، ما جدوى الكلام ؟ أنت متعب ، وكذلك أنا متعبة ومهما قلنا من كلام فلن يفيدنا ذلك شيئا ، وخير لك أن تستحم الى أن أعد المائدة .
ولم تترك له فرصة للرد بل مضت الى داخل المطبخ ، وربما كان هذا افضل شىء على كل حال ، فقد كانت معدته خاوية

لا تسمح له بأى نصيب من الكفاح . والكلام يزيده ضعفا على ضعف كما أن القهوة لم تنعشه .. بل قلبت عليه معدته .

ولما كان فى الحمام عادت تشنجات قلبه تعذبه وتؤلمه الى حد كاد معه يصرخ مستغيثا ، ومرت به أربع دقائق وهو يتصور أنه يحتضر ، ولكنه كان يعرف أن هذا لم يكن صحيحا ، وعندما كانا فى فندقهما بميناء الهافر استدعيا الطبيب الذى فحصه وكانه يعلم مقدما ماذا كان هنالك وقال ببرود :

ـ ليس هناك أى خطر .

ـ ماذا هناك اذن يا دكتور ؟ .

ونظر الطبيب اليهما كليهما وقال بجفاء :

ـ انه من تأثير الخمر .

وقد اذله هذا التعبير وثار على نفسه ، ثار على هذه اللهفة المجنونة ، تلك اللهفة التى دفعته فى الليلة الماضية الى ارتياد أول بار على الطريق ، ولم تكن هذه أول مرة يجرى له فيها هذا الأمر وكان يعرف مقدما نتيجة ما هو صائر اليه .

لماذا كان يهتم جولى دائما على نحو يجعل أى واحد يراه كذلك يعتقد انه على وشك أن يكرهها ، وكان ينحى عليهاباللائمةلأنه كان يشرب بضع كئوس خمر ، ولكن ما سبب لومه اياها يا الهى لقد كان سعيدا معها ، لماذا الاصرار على جعلها تظن انه لم يكن سعيدا .

لابد انه تمادى الى أكثر مما يجب ، وفى المرات السابقةكانت تحزن وتيأس ، ولكن لم تبد من قبل بمثل هذه الصورة المخيفة فهى اليوم تبدو وكأنما فقدت عضوا حيويا من أعضائها ، ولكنها لاتزال حية تعمل القهوة والحساء ، كأنها لم تكن هى جولى بل كانت كائنا ناقصا بلا شخصية ، بل يعمل فقط تحتتأثير الخطر .

وبعد أن ارتدى البنطلون أسرع باللحاق بها فى المطبخ ولما كانت مولية ظهرها نحوه فانه انتهز الفرصة واحاطها بذراعيه .

وقال : اسمعى ياحبيبتى جولى .. يجب الا تصدقى حرفا واحدا مما قلته لك .

ـ هل تذكر ما قلته لى ؟ .

ـ لاأذكر شيئا قط ، ولكنى أذكر أنى كنت جديرا بالكراهية .
ولكنك قلت ما كان يدور بخلدك .
ـ طبعا لم يكن ما قلته معبرا عما يدور فى خاطرى ، وقد قلت كثيرا من الهراء الأحمق ، وسلكت سلوك الغبى الفخور .. اسمعى ان الممثل الهزلى الذى حدثتك بشأنه ...
ـ ماذا ؟ .

ـ سخر منى . انى تقريبا اعرفه ، ومع ذلك فقد لعب معى لعبة مصاصى الدماء وتستطيعين أن تراهنى على أنه ليس لديه عقد للعمل فى ثيفير أو اى مكان آخر .
ـ الفذاء معد . تعال الى المنضدة .
ـ لست جائعا .
ـ حاول أن تأكل قليلا .
ـ انى أشعر بتحسن كبير فى صحتى لو أنك صدقتنى .
ومشت امامه وبيدها صحن فيه قطع من اللحم . وفى نيتها أن تضعه على المنضدة ، وكانت البازلاء من البازلاء المحفوظة فى العلب لأنها لم تخرج الى السوق لشراء شىء .

ـ كف ياأنطوان عن الاشتفال ، لقد فهمت كل شىء ، فى الليلة الماضية ، ولن ازعجك بعد الآن ، وتستطيع أن تفعل ماتشاء ، وعلى أية حال فأنه لايبدو لى أنى اعترضت سبيل أى عمل لك .
ـ ولكنى اريدك ان تعترضى سبيلى وأن توقفينى عند حد .
ـحتى تصفنى بعد ذلك بأنى من أسرة ترافو ؟ .
ـ اعتذر عن ذلك ، فانى لم أكن أدرى ما أقول .
ـ كلانا يدرك تماما معنى هذا الوصف عندك ، فانت كنت تحتقر أمى .
ـ هل كانت مقبولة ؟ .
ـ كلا .
ـ الم تكن تصفنى بانى المهرج ؟ .

وكانت الأم امرأة ضئيلة الحجم مضحكة بنحافتها وسلاطة لسانها وما كانت لتحدث ابنتها بشأنه دون أن تقول :

ـ زوجك المهرج !.

فاذا رأته داخلا قالت :

ـ ها هو ذا أنطوان المهرج !.

وكانت تبتكر طريقة جديدة لاذلاله بعبقرية شيطانية عشر مرات أو عشرين مرة يوميا .

ـ لم يكن فى استطاعتك يا جولى أنت نفسك أن تسايريها ولقد قلت لى مرارا انها حطمت حياتك عمدا وبدافع الأنانية ومخافة أن تقضى الايام الأخيرة من حياتها وحيدة .

ـ كيف قادنا الحديث الى الكلام عن أمى ؟ .

ـ لقد كنت أنت التى ....

ثم راجع نفسه فما الجدوى ؟ لقد كان عليه هو أن يلتمس الصفح لا هى .

ـ ان ما أصر على أن تعلميه هو أنى سعيد معك وكل ما قلت لك فى الليلة الماضية لن يغير هذه الحقيقة ، فانى لم أعرف للسعادة طعما قبل أن أعرفك . اسمعى . لقد كنت منذ لحظة وأنا فى الفراش ....

وعاد اليه ذلك الامر ، ولابد أنه فكر فيه فى فترة ما من تلك الفترات التى كان يتأرجح فيها بين اليقظة والنوم ، فمنذ لحظة كان يحلم بامرأة تبدو فى صورة اليس ومع ذلك فلم تكن هى تماما وكان يتحاشى دائما التكلم عن أليس على الرغم من معرفة جولى اياها ولم يكن من الضرورى على أية حال أن يستعيد ذكراها بصدد ماكان على وشك أن يقوله :

ـ كم كان عمرى عندما قابلتك ؟ الم أكن فى الرابعة والاربعين من عمرى ؟ انها السن التى يكون الرجل فيها قد قطع مرحلة كبيرة من عمره .

وكانت جولى وقتئذ فى السابعة والثلاثين من عمرها وكانت على ما هى عليه الآن من بدانة ، وكان منظرها عجيبا وهى واقفة بكل هذه البدانة بجوار أمها النحيفة كل النحافة .

ـ لقد كنت منذ لحظة وأنا فى الفراش كنت أحاول ان اتذكر

ـ ماذا ؟ .

ـ لم يكن شيئا خاصا ! انها حياتى السابقة لمجرد انى سعيد وأوازن بين الحالين .

ـ هل انت مضطر لهذا لكى تطمئن كل الاطمئنان ؟.

ويجب الا يغضب مهما حدث ، يجب أن يظل هادئا صبورا .

ـ دعينى أوضح لك أفكارى ، ان جاز لك ان تسميها أفكارا وانت تعرفين حال المرء وهو شبه يقظان .. كنت أقول لنفسى :

قبل أن أعرف جولى لم أكن أحيا ، وأستطيع اثبات ذلك . وأنا فى الواقع أذكر كيف حدث هذا ، كنت أفكر فى ذلك الممثل الهزلى الذى زعم انه يعرفنى منذ أن كنا نعمل فى مقهى «بأكرا» على حين أنا لا أذكره مطلقا ، ولقد أقمت فى ذلك المقهى اكثر من خمسين حفلا ومع ذلك فأنا لا أذكر لون المقاعد ، والى اى جانب من جانبى المسرح كانت غرفة الثياب ؟ وينطبق هذا على كل مكان آخر عملت فيه أو عشت فيه الا ذلك البيت الذى اقمت فيه مع امى حتى بلغت السابعة عشرة من عمرى .

وكل ما أعرفه هو أنى انتقلت من هذا المكان الى ذلك أو عشت فى هذا البيت أو ذاك .

انتظرى . أظن انى سأستطيع أن أوضح لك شعورى : يحدث أحيانا فى بعض دور السينما أن يستمر عرض الفيلم كصورة على حين ينقطع عنه الصوت ، ومع ذلك ترين الممثلين يتحركون ويتكلمون ويبتسمون ولكنك لا تدركين معنى ما ترين لأن الصوت لا يصل اليك فلا تكون فى الفيلم حياة ..

ـ ألا تريد شيئا لتأكله ؟.

ـ الا يهمك هذا الذى اقوله لك ؟.

ـ لا يهمنى .

ـ انه ليس الصوت وحده هو الذى ينقص ذاكرتى ؟ وحتى عندما تكون ذكرياتى واضحة وضوحا يثير العجب وكأنها نقوش بارزة لا تكون حقيقية ؟ اذ تنقصها المادة والرائحة ، هل تفهمين؟

وردت عليه بابتسامة حزينة :

ـ الا تصدقينني ؟.

ـ اعتقد انك تحاول أن تكون سـعيدا وانك تبذل كل ما في وسعك لاقناع نفسك بذلك ، وقد استمرت حالك هكذا خمس سنوات ، وأذكر أولى تلك المحاولات ، كانت قبل وفاة أمي بسنتين .

ـ كنت اشرب قبل ذلك ؟ .

ـ نعم ولكنك كنت تشرب بين الحين والحين .

ـ لم أكن أدمن الشراب اذ لم يكن للخمر التأثير نفسه على . وقد حدثتني بنفسك فقلت : انك قبل أن تعرفني كنت تقضي الليالي مع اصدقائك .

لم أندم على شيء ، ولم أوجه الى نفسي أي أسئلة لأني لم أكن أسيء الى أحد .

وانقضت دقيقة في صمت وعلى حين فجأة ناداها وفي ملامح وجهه التوسل والبهجة معا :

ـ جولي ! .

فزعت جولي ونظرت اليه بعينين خاليتين من التعبير .

ـ ابتسمي يا جولي ! .

ـ هل تصر على أن أحاول ؟ .

ـ هل تقصدين انك لاتستطيعين الابتسام لي ؟.

ـ أنت ترى انك حطمت شيئا .

ونهض يائسا اذ لم يعد الاستمرار مجديا ، وكان على صواب في تفكيره عندما استيقظ ، وكانت نتيجة هذا التفكير الفكرة القائلة بأنه قد حدث شيء لاعلاج له ، وكان رأسه ثقيلا ، وذهب الى غرفة مكتبه وحدث في مكتبه ما يحدث له في كل مكان آخر ، وجده هو الآخر خاليا من الحياة ، ولمس أشياء بدت غريبة عليه ، لم يعرف أين يجلس ولم يعد مستطيعا أن يجد مكانه في الشقة. وهناك حقيبتاه لم تفتحا وهما على الأرض فأفرغهما بطريقة آلية ووضع كل قطعة من أدواته في مكانها ، ولكن قبل أن ينتهي من عمله هذا أسرع الى الحمام ليتخلص من ذلك القدر القليل من الطعام الذي كان قد تناوله .

وكانت جولى وقتئذ منهمكة فى رفع ما على المنضـــدة فجاءت وفتحت الباب قليلا لترى ماذا به ؟. وخجل من نفسه فطلب الى جولى أن تذهب بعيدا عنه ، ولم يكن قد ألقى نظرة على خارج البيت ولم تكن لديه أية فكرة عما كان عليه الطقس . وكانت نافذة الحمام لا يزال زجاجهـــا المغطى ببخار الماء أبيض كالثـــلج كما كان فى الصباح .

وبدا أن من الخير له أن يرتدى ثيابه وأن يخرج ، لن يشرب ، فليست به رغبة فى الشراب ويستطيع وهو على الرصيف أن يدور حول مجموعة البيوت التى بينها بيته بضع مرات ثم يعود .

وعقد ربطة عنقه وارتدى سترته وعبر غرفة النوم وذهب نحو المشجب الذى عليه معطفه بالقـــرب من باب المسكن . وكان على وشك أن يذهب الى المطبخ ليقول لجولى : انه خارج ، ولكنها فتحت الباب وقتئذ وحدقت النظر فيه نظرة قرأ فيها شيئا قريبـــا من الجنون !

ــ هل أنت خارج ؟.

ــ سأغير الهواء قليلا .

ــ بدون أن تقول لى ؟.

ــ كنت على وشك أن أقول لك .

وكانت بيدها مقلاة .

وقال: سأعود حالا .

وخرج على بسطة السلم وأغلق باب الشـــقة وراءه ، ثم زرر معطفه وأخذ يهبط السلم وكان يحس أنه من الخطـأ أن يهرب بل شعر أنه ارتكب خطيئة ، وعلى الدرجة الثالثة من السلم تردد ونزل درجتين أخريين ، وفى تلك اللحظة انفتح الباب وخرجت منه جولى أخرى لا يكاد يعرفها ، جولى التى استبد بها الخوف ونادته بدون أن تتحرك من مكانها أول الأمر .

ــ انطوان !.

وفقدت كل سيطرة لها على نفسها ، فألقت بنفسها عليه وهى بثياب النوم منكوشة الشعر ويداها ملوثتان بدهن الصحون . ولم يسبق حدوث مثل هذا لها قط ، وخطر بباله من مظهرها أنها جنت أو أن حادثا قد وقع لها فى المطبخ ، وظل واقفـــا فى مكانه

معتدلا فى وقفته على السلم على حين أنها متعلقة به تصيح غير عابئة بالجيران وهم يسمعونها :
ــ تعال هنا ! عد الى ! اتوسل اليك ! لا تتركنى يا انطوان ! لا استطيع لا استطيع !.
وظللت تردد هذه الكلمات التى تقطعها التأوهات وهو يتبعهـا الى داخل الشقة :
ــ لا أستطيع !. لا أستطيع !.
وعندما أغلق الباب انهارت وهوت على قدميه تحيط ساقيـه بذراعيها وهى تمرغ وجهها المغطى بالدموع فى ملابسه .
ــ سامحنى ! سامحنى اذا لم أكن دائما كما تريدنى أن أكون .. ليست الغلطة غلطتى ، انى أبذل قصارى جهدى ، أقسم لك أنى ابذل قصارى جهدى ...
ولم يستطيعا أن يبقيا فى هذا الموقف ، ولم يكن مستطيعا أن يسمح لها باجهاد نفسها أكثر مما فعلت .
ــ انهضى يا جولى .
ــ قل لى : انك سامحتنى ..
ــ ليس هناك ما أسامحك من أجله ، بل أنا الذى يجب أن ...
ــ أنت تعرف جيدا أن هذا ليس صحيحا ، وقد كنت أنت على صواب فى الليلة الماضية ..
ــ أقسم لك ..
ــ أنا عاجزة عن اسعادك على الرغم من أنى أحاول ذلك بكل ما أوتيت من قوة .
ــ قفى !.
وساعدها فى الوقوف وضمها الى صدره واخفت رأسها فى صدره
ــ هل انت غاضب منى جدا يا أنطوان ؟
ــ لم أغضب منك قط .
ــ هل تكرهنى ؟.
وكانت مستمرة فى نحيبها وتنهداتها العميقة التى لا بد أن تكون قد مزقت حلقها وكان صوتها يقطع نياط القلب .
وقال : تعالى بنا ، ولا تدعينا فى موقفنا هذا طويلا .

وقادها نحو غرفة نومهما وحاول أن يرقدها على فراشها الذى لم يكن قد سوى بعد ، واخيرا سمحت لنفسها بأن تغطس فى الفراش وهى لاتزال تبكى وتناديه بصوت يقطر عذابا كما لو كان فى نيته أن يذهب .

ـ لا تتركنى يا انطوان ! انت حياتى ، لا استطيع احتمال أن أعيش وحدى . واذا أنت تركتنى ..

ـ لن أتركك .

وخلع معطفه ووضعه على مقعد والقى قبعته على الأرض ثم رقد بجوارها لتهدئتها .

ـ كفى عن البكاء ، وكفى عن الخوف ، فأنا الذى كنت أحمق وكريها .

وهزت رأسها فى عنف .

ـ أنت تعرف أن هذا غير صحيح ، أنا حمقاء ، وأنا أريدك بجوارى طوال الوقت فأنا متعلقة بك ، ولا أمنحك اية حرية فأنا شديدة الخوف كما ترى .

وكانت ممسكة به وتتطلع اليه من خلال دموعها .

واصبحت الآن تتكلم بهدوء :

ـ رحمة بى يا انطوان ، لا تتركنى ابدا ! انا قبيحة الصورة وعجوز وحمقاء ! انا من أسرة ترافو كما تقول ، أى نعم أنا كذلك وادرك هذا تمام الادراك . وانى لأبذل قصارى جهدى فى الا أكون كذلك وأن أصبح مثلك . وقد ظللت أبذل هذه المحاولات طوال الاحد عشر عاما التى انقضت علينا معا ، ألا تزال تحبنى يا أنطوان حتى بعض الحب ؟ قل لى ؟

ـ أحبك .

ولكن عندما حاول أن يقبلها أبعدت عنه رأسها .

ـ كلا ليس ذلك الآن ، أريد أولا منك أن تعرف أنى شديدة الخوف من أن افقدك الى حد أنى أحيانا أتتبعك فى الشارع بدون أن تعلم انت ذلك ، ذلك الماضى الذى كنت تتحدث عنه الآن أغار منه غيرة شديدة ، لا ممن فيه من نساء فحسب ، بل من الرجال الذين كانوا فيه أيضا : من أصدقائك القدماء ، وكل من كنت تعرفهم قبل أن تعرفنى ولا أستطيع التخلص من هذا الاحساس بأنك كنت فى

ذلك الماضي سعيدا وانني افسدت عليك حنـــانك باكراهك على مشاركتي في حياتي .

وابتسم ابتسامة رقيقة وقال : اكرهتني ؟.

وارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة هي الأخرى وقالت :

ـ الم تلاحظ ذلك ؟ هل تتصور انك كنت انت الذي بدا الخطوة الأولى ؟.

وكان صوتها أجش عندما قالت له في توسل :

ـ قبلني .

واغمض انطوان عينيه وهو يقبلها

وحالما استعادا انفاسهما همست في اذنه في تلعثم :

ـ ألن تهجرني ؟.

ـ أبدا .

ـ بالرغم من كل شيء ؟ حتى لو ...

ـ لو ... ؟

ـ لو زدت حماقة وغيرة ؟

ولم يفتح عينيه ، وكان جميلا ذلك الشعور بأنها بجواره ، ولم يعد يعرف : هل تنظر اليه أو هي الأخرى مغمضة عينيها ؟ وكان شديد التأثر ، ولم يعد رأسه يؤلمه وان كان يشعر بشيء من الدوار.

ـ احبك يا انطوان .

ـ وانا أيضا أحبك .

ـ انت وسيم .

وتذكر عندئذ تلك النظرة التي كانت تنظرها اليـــــه في أول عهدهما في فندق « لابوربول » عندما نزل بسترته الطويلة وقناعه الأسود يغطي وجهه ليقدم عرضـا لألعابه في غرفة المـائدة حيث أزيحت الموائد الى جوانب الجدران .

وقبلها وعمهما الصمت . وعلا ضجيج أبواق سيارات التاكسي والسيارات العامة عند الناصية .

وهمست قائلة :

ـ انطوان !.

ولكي يشعرها بانه منتبه مر بيده على شعرها .

ـ لقد أوشكت الشمس أن تغرب .

وفتح عينيه ورأى على الجدار خيال الستائر الدانتـلا الذى القته الاضواء الآتية من الخارج .

وقال لها : هل نخرج فى نزهة ؟.

ـ لست مرتدية ثيابى للخروج .

ـ ارتديها الا اذا لم تكونى راغبة فى الخروج .

ـ اى نعم ، لولا انى خائفة بعض الشيء من ان اضيء النور .

ـ لاتضيئيه ..

ـ وما رأيك فى شعرى ؟.. سأسرع ، وامض أنت ياأنطوان فى قراءة جريدتك وأنت تنتظرنى ..

وقرأ جريدته فى غرفة المائدة وهى الغرفة التى جعلا منهـا غرفة جلوسهما ثم صنع لنفسه قدحا من القهوة ثم ناداها عـبر الباب

ـ هل تريدين بعض القهوة ؟

ـ ماذا ؟.

ـ بعض القهوة ..

ـ أشكرك ..

ـ أتشربين فتشكرينى أم لا تشربين فتشكرينى ؟.

ـ أشكرك ولا أشرب .

وسرهما هذا الحوار كأنه لعبة ، وشعرا وكأنما قد عادا الى أيام براءتهما ، وكان انطوان فى عجلة من أمره يريد الهواء المنعش . وكانت القهوة التى يشربها كالقهوة التى يشربها عادة فى الصباح ، وهناك بعض الأشياء التى لا يتذوقها المرء الا فى لحظات الأزمات أو عندما يخاف فقـــدها مثل صـــوت وقع الأقدام على الرصيف الذى يغطيه الجليد ، أومنظر حانوت الخضرى والرائحة التى تنبعث منه الى انفك ، أو أضواء سيارات التاكسى وهى تدور حول ميـــدان التـــين واصوات ابواق السيارات وهى تتجمع فى سيمفونية واحدة .

وارتدت هى افخر ثيابها وسترتها الجديدة ، ووضعت فى يديها قفازها وابتسمت فى حياء :

ـ هل جعلتك تنتظر وقتا طويلا ؟

ـ كلا .

ـ ما رأيك فى مظهرى ؟.

ـ أحبك .

ـ على الرغم من قبحى ؟.

واستطاعا الآن أن يتندرا :

ـ انتظرى كدت أنسى صنبور الغاز مفتـــوحا ، هل معك المفتاح ؟.

ـ نعم معى ..

وهبطا السلم وكلاهما متأبط ذراع الآخر وضحكا مرتين عندما تعثرت جولى فى حاجز السلم ، ولما خـــرجا من البيت هب على وجهيهما الهواء المنعش ، ولما امتلأت رئتاهما بهذا الهواء نظر كلاهما الى عينى الآخر البراقتين .

وقال وهو يتأبط ذراعها : لقد كنا غبيين !..

ـ هل أنت واثق من أنك لست شقيا ؟.

وتظاهر بالغضب ..

ـ هل سنعود ثانية الى هذا الجدل ؟.

ـ أعرف أنك لست شقيا أو على الأقل أعتقد ذلك ، ولكنى كنت أريد التيقن فحسب .

ـ أين نحن ذاهبان ؟.

ـ الى أى مكان .

وكان معنى هذا أن يبدأا بالذهاب فى شارع واجـرام حتى الأنوال وكانت الساعة وقتئذ منتصف السادسة بعد الظهر . وكانت الحوانيت مضاءة ودور السينما مضاءة واللافتات فوق المقـاهى براقة .

وقال لها وهما يتطلعان الى معرض للفوتوغراف والراديو :

ـ نعم .

ـ ماذا ؟ قل أنت أولا .

ـ هل فطنت حقا الى ما اريد ؟.

ـ أظن ذلك ..

ـ لنتناول عشاءنا الليلة فى أحد المطاعم ، هل هذا ما خطر لك ؟ هل لديك الفكرة نفسها ؟.

ـ نعم ..

ـ هل تحبين ذلك ؟.

ـ ان شئت .
ـ هل تفضلين تناول العشاء فى البيت ؟.
ـ كلا .
ـ هل نتنزه بالمشى أولا ؟.
ـ نعم .
ـ هل يكون ذلك فى الشانزليزيه ؟.
ومضيا يتأبط كل ذراع الآخر ورأيا نفسيهما دون أن يلاحظا ذلك وسط زحام على الرصيف فى موكب وكانا يقفان عندما يقف الموكب أمام نوافذ الحوانيت ثم يمضيان كأنما بايماء من اشارة .
ـ هل أنت سعيدة ؟
ـ وأنت أيضا ؟.
ـ أنا أسعد الرجال ، أما فى الصباح فقد كنت خائفا ..
ـ مم ؟.
ـ من أن أكون قد كسرت شيئا لا يمكن جبره .
واكتفت بأن ضغطت على معصمه بأصابعها .
ـ صه .
ـ أنا فى الحقيقة مسكين .
ـ لا تقل ذلك .
ـ هذا صحيح وأنت تعرفينه .
ـ أحبك .
ـ ان هذا لايغير حقيقة . انى غير نافع .
وبدلا من أن ترد عليه هذه المرة أشارت الى سيارة امريكية كبيرة فى معرض للسيارات وقالت :
ـ أنظر ..
وكانا لايزالان يشعران بالفراغ ولكنهما شعرا بأنهما فى حالة نقاهة ، واستمرا فى السير حتى بلغا المادلين وهناك كان مقهى مغطى بجدار من زجاج وقد دفىء بحرارة موقد .
ـ هل نجلس لحظة ؟.
وكانت كئوس الشراب على كل منضدة تقريبا . وخشى أن يخاف جولى ، بل لقد احمر وجهه خجلا لأنه فكر فى احتمال أن

يدور هذا الخاطر بخلدها ولكى يرد على سؤال لم يوجه اليه تمتم قائلا .

ــ أستطيع الاكتفاء بزجاجة من ماء فيشى .

وتحاشى النظر اليها .. ولكنه كان يعـــرف أنهـا لم تبتسم .

الفصـــل الرابع

وكان يرتدى سترة التدخين من المخمل الأسود التى كانت جولى قد أعطته اياها بمناسبة عيد ميلاده منذ عامين وقد شـبك وردة حمراء بدبوس فى كوفيته الحـريرية البيضـــاء ، وبالرغم من أن الساعة كانت العاشرة فان المصباح فوق مكتبه كان مضاء وكان يعمل فى نطاق دائرة النور التى يلقيها المصباح على المكتب، وكان يعمـل بصبر فى جمع أحرف من المطاط من صندوق يشبه تلك الصناديق التى تقدم للاطفال فى أعياد الميلاد ، وكون من هذه الأحرف ثلاثة أسطر ليطبعها فيما بعد على ثلثمائة نشرة دورية تحمل صــورته ، وكان من عادته أن يضع عبارة كهذه .. على مثل هـــذه النشرات ويعلق على ذلك أهمية كبيرة . وكان قد فسر ذلك لجولى ذات مرة اذ قال : ان اليوم مثلا هو منتصف شهر يناير وفيه موسم الاستعداد لعيد الفصح فيتخير له العبارة الملائمة .

وكان أنطوان قد اختار هذا العمل المجهد عن قصد . وكان اليوم الثانى أكثر اجهادا من اليوم الأول لأن النشوة التى أحســها فى اليوم السابق قد خمدت فى اليوم الثانى ووجد أن ذكرى حمى الحب التى أصابتهما فى الليلة الماضية تثير الحيرة والارتباك كمـا حدث تماما بعد بورج لى رين .

ولم يكن هذا هو شأن جولى ، فقد كانت مستطيعة أن تعيش الى الأبد فى هذه النشوة ، وكانت صباح اليوم تسلك سلوك العروس الصغيرة ، وكانت فى هذه اللحظة تغنى وهى ترتب غرفة النوم . ومع ذلك فقد كانت متيقظة قلقة بشأن أقل انفعال قد يحدث من أنطوان ، بل انها شغلت مرتين فى أثناء تناول طعام الافطار عنـدما رأته مكتئبا قليلا .

ولم تذكر ذلك بل ترجمت شعورها هذا بلحظات خاطفة ،ولكى يحول دون أن تفكر عميقا قال بسرعة :

ـ انى اتساءل هل بكبدى تعب ؟.
ـ انك لاتبدو بصحة جيدة ، فلماذا لاتستريح يومك كله؟.
وكان ينتظره أربعة أيام بلا عمل . ففى كل سنة وبعد أعياد راس السنة يقل العمل حتى نهاية شهر يناير .
ـ انى افضل ان اتم هذه النشرات وهى لا تسبب لى تعبا .

ولم تكن تشعر بشعوره نفسه وكان من الممكن أن تقضى بقية حياتها فى حال النشوة التى اشتركا فيها فى الأمسية الماضية .
ـ هل أصنع لك كوبا من الشاى ؟.
وقبل هذا العرض ليؤيد ما زعمه من تعب فى كبده ، وكان ممكنا على أية حال أن تكون كبده تؤلمه وان كان تعبه هو فى الواقع معنويا كما كان جسديا ، وكان لونه يميل الى الصفرة وكان يشعر بمرارة فى فمه .
وكانت حاجته الشديدة انما هى الى العودة للحياة العادية حياة كل يوم ، وكان يحاول أن يستأنف حركاته العادية البسيطة ولكنه لم يملك الا أن يشعر بأنه يمثل دورا . أليس هذا سخيفا ؟ لمجرد انه شرب بضع كئوس من الخمر جلب مأساة من لا شىء؟.
والآن هاهو اذا عاجز عن العودة الى مجرد حالة الاعتدال فى الشراب .
ـ هل تشعر بأن درجة حرارتك عالية ؟.
ـ لابأس بى .
ـ هل اقبلك ؟.
وأومأ برأسه باسما ، وكانت ابتسامته سيئة ، كان فى الخامسة والخمسين من عمره ، وكانت هى فى الثامنة والأربعين من عمرها.
وقد كان سلوكهما فى الليلة الماضية سلوك عروسين وذهب الحب بجولى الى حد أنها نسيت كل شىء وهما فى المطعم حيث تناولا العشاء !.

وكان هو الذى اختار المطعم بالقرب من دار الأوبرا ، وقد سبق له أن اصطحبها الى ذلك المطعم ذات مرة من قبل ، وكان ذلك بمناسبة ذكرى يوم زفافهما لأن تكاليف ذلك المطعم باهظة وأطعمته فاخرة وكانت جولى متلهفة على هذه الأنواع من الأطعمة .

ـ هل تظن أن ثيابى تليق بى للذهاب الى هناك ؟.

وكانت منضدتهما بالقرب من أحد الأعمدة ولم يكن أول شخص رآه أنطوان سوى ذلك الرجل ذى الشارب والشارة . وكان قد أخطأ فى الليلة الماضية حين ظنه موظفا مدنيا ولو كان كذلك لوجب أن يكون ذا مركز عال ، وربما كان مدير مصلحة ، فقد كانت ثيابه غاية فى الأناقة ، وكانت فى صحبته امرأة حسناء فتية ، وكان ثوب سهرتها يكشف عن كتفيها العاريتين وفى أصبعيهما خاتما زواجهما واستنتج انطوان من سلوكهما أنهما زوجان .

ـ الى من تنظر ؟.

ثم أخطأت وجهة نظره فقالت :

ـ انه لؤلؤ حقيقى .

أما الرجل فلم يره الا بعد قليل ، وكادت عيناه تمران به دون أن تلحظاه ثم تجهم وجهه كمن يتساءل : أين رأى هذا الوجه من قبل ؟.

وكان وجهه خاليا تماما من أثر الشراب الذى أكثر منه فى الليلة الماضية .

وكان أديم وجهه وردى اللون حليقا تنبعث من شاربه رائحة عطر .

وخمن انطوان الكلمات التى كانت على شفتى المرأة .

ـ من هذا ؟.

وربما كان الرجل يجيب بقوله : ان هذا هو ماأسأل نفسى عنه.

ولم يستطع الاهتداء الى أين كان اجتماعهما ، وفحصت رفيقته جولى بدقة وهمست شيئا فى أذنه ثم ضحكت ، أما هو فقد ابتسم ابتسامة عجب واستمتاع فى الوقت نفسه .

ماذا قالت ؟ لم يكن أنطوان وكذلك لم تكن جولى يرتفعان الى مستوى رواد المطعم ، ولابد أن يكون الجالسون فى المطعم قد ظنوهما ريفيين أو جاءا يحتفلان بعيد زواجهما .

ـ هل تحبينى ؟.

كانت هذه هى لعبة المساء ، وكانت تسأله هذا السؤال فى خبث باسم كل خمس دقائق .

ـ ستقول لى يوما ما وانت صادق لماذا احببتنى ؟.

وسبقهما الرجل ذو الشارب والشارة وصاحبته الى الخروج وعندما هم الرجل بالوقوف كان قد تذكر ، ورأى أنطوان فى وجهه تغييرا ، ورأى حمرة الخجل ترتسم على وجهه وانه تحاشى النظر اليه هو وجولى فى أثناء مروره بمنضدتهما !.

ـ هل أنت واثق من أنك لاتعرفهما ؟.

ـ بالتأكيد .

ـ لقد ظلا يرقبانك طوال الوقت . وربما رأياك وأنت تقدم العابك فى مكان ما .

لماذا تشغله هذه الذكرى ، ألم تكن مجرد مصادفة عجيبة أن يلتقي بالشخص نفسه ليلتين متواليتين فى مكانين مختلفين ؟والشيء المزعج هو وجود بعض المشابهة بينهما وهى مشابهة ملحوظة كتلك التى تكون بين أخوين وخصوصا عندما يكون انطوان فى ثياب العمل؟ أما رفيقته فقد كانت أصغر منه بعشرين عاما ، وهى من تلك النسوة اللاتى يخرجن من السيارات الكبيرة وهن غارقات فى معاطف الفراء أمام الشانزليزيه أو عند باب حائكة الثياب .

وكان بين الحين والحين يلتقط الحرف الخطأ فيبدأ الكلمة من جديد .

ـ هل انت فى حاجة الى شيء ؟.

ـ لا ، واشكرك .

ـ هل أنت أحسن حالا ؟.

ـ نعم .

وكان مكتبه يطل على فناء البيت والجليد الرقيق يتساقط .. وكان الطوب فى الجانب الآخر أسمر داكنا ، والنافذة المقابلة اكثر انخفاضا من نافذته . وكانت نافذة حائكة ثياب حيث تعمل مجموعة من الفتيات القبيحات الصورة وكل منهن تعمل فى ضوء مصباح كهربى معلق بحبل فوق رأسها ، وغالبا ماكان يعد رءوس الفتيات؟ انها ثمانية رءوس كأنها رءوس خشبية حول منضدة ؟.

وكان ماقاله فى الليلة السابقة لجولى عن ماضيه صحيحا .. ولم يحب الطريقة التى تحدث بها عن ذلك الماضى لأنها بدت طريقة خيالية ، ولكنها كانت على العموم تعبر تعبيرا صادقا عن حقيقة شعوره . وكانت هناك حقيقة فى كل شيء قاله .

ويجب الا يفكر المرء فى مثل هذه الأمور والى اين يؤدى التفكير بالمرء فيها ؟ هل حدث ان شغل نفسه بها من قبل ؟.

وعلى حين فجأة رأى نفسه يوجه هذا السؤال الى نفسه دون أن يجد له جوابا !.

وكانت جولى قد قالت له :

ـ كانت عادتك من قبل أن تشرب الخمر بين الحين والحين ..

كان هذا صحيحا ، فلماذا اصبح لذلك فجأة مثل هذا التأثير؟.

هل كان سببه تقدمه فى السن وان الشيخوخة لم تعد تحتمل الكحول ؟.

ولكن لماذا كان دائما ينحى باللائمة على جولى ؟ ولماذا ذلك دائما الطريقة نفسهابل العبارة نفسها تقريبا ؟.

انه لم يكذب عندما قال لها :

ـ انه لم يكن ينعم بالسعادة قبلها الا عندما كانت أمه بين الأحياء؟

ولم يكن يجب عليه ان يذكر لها ذلك المثل الذى ضربه لها وهو مثل الفيلم الذى خلا من الصوت ، كانت فيه مبالغة وتعمد ومع ذلك فان الحقيقة هى أن ذكرياته تنقصها الحرارة الانسانية .

أولا لقد ظل عشرة اعوام وهو يقيم فى غرف مفروشة أحيانا لأنه كان شديد الفقر لايملك استئجار شقة ، واحيانا لأنه لم تكن به رغبة فى تعقيد حياته ، وفى تلك الفترة كان يقضى بعض يومه فى بار جلوب فى شارع ستراسبورج وهو ملتقى الممثلين والفنانين الآخرين وحتى اذا لم يكن لديك ثمن الكأس تستطيع أن تجلس هناك مع جماعة من الفنانين او أن تقف بين الموائد تنتظر أن يتذكرك مخرج أو منتج ، ولابد أن يكون قد التقى بداجوبير هناك ، داجوبير الممثل الهزلى .

وكان يستأجر غرفة بايجار شهرى أو اسبوعى فى أغلب فنادق ذلك الحى بين ميدان الجمهورية وضاحية السماكين . وكان قد طاف بالبلاد مع الفرق الجوالة ،وذهب الى الريفييرا والى بريتانى والى بلجيكا ، وذهب مرتين الى سويسرا ، وفى المرة الأخيرة تركهم مدير الفرقة بدون اى نقود ، واضطر قنصل بلادهم الى دفع جميع التكاليف !

هل كان تعسا وقتئذ ؟ لم يكن واثقا من هذا ، فقد انتهى أمر ذلك كله الآن ، وقد تعود الناس الكلام عن أيام الشباب الخالى من الهموم ، وكان افضل مايذكره هو المشى دون توقف تحت وابل المطر بأحذية ممزقة لأنه لم يكن لديه نقود تساعده فى ركوب سيارة عامة أو سكة حديدية فرعية ، ولقد كان فى الثلاثين من عمره على الأقل عندما كف عن وضع قدميه فى حذاء ممزق .

كان فى استطاعته اختيار أية إمرأة .

لم يكن هذا صحيحا ، ولم يشأ أن يناقض جولى ، وقد كانت مخطئة عندما قالت له ذلك . كانت له علاقات ببعض النساء ولكنه لم يستطع تذكر أية واحدة منهن بصورة حية واضحة ، لقد كن جميعا على صلة بالمسرح أو بالسيرك لأنه كان يعمل بالسيرك أيضا أحيانا ، لم يكن نجوما من نجوم المسرح أو السيرك بل كن ممثلات من الدرجة الثالثة أو من الكومبارس أو من الراقصات ، وكانت صداقتهن عادية سهلة لاتكلف شيئا أو جهدا .

ولم تكن تلك العلاقات صلة بالحب،وكان الحب يحدث أحيانا مصادفة . وكان يحدث الحب أحيانا لأن احداهن تكون قد طردت من غرفتها المفروشة ، ولم تعرف أين تقضى الليلة ، أو ربما على الطريق عندما لايكون هناك مكان كاف أو اسرة بفنادق الدرجة الرابعة التى تستأجرها الفرقة . وأحيانا يحدث الحب فى القطار عندما يتكدسون كل عشرة أو اثنى عشر فى مقصورة واحدة فى أثناء الليل .

وكان عندئذ يحلم بأن تكون له غرفة مستقلة يعمل فيهافى اتقان العابه وأدواته ، واضطر الى الانتظار حتى بلغ الثامنة والثلاثين من عمره ، لكى تصبح له مثل هذه الغرفة ، ومن دواعى السخرية أن تكون منافسة السينما له هى التى جعلت حياته قاسية عليه .

وقال له صديق لم يعد يذكر اسمه الآن :

ـ لماذا لاتحاول العمل مع الجمعيات الخيرية أو النوادى أوحفلات الهواة ؟ .

وكان معنى هذا أن يعمل حرا لايرتبط بفرقة معينة ، وعلى الفور استبد به الطموح فى أن تصبح له شقة خاصة ، ووجد شقة

فى شارع التميل بالقرب من مسرح ديجازية وسيرك الشتاء بالقرب من الحى الذى ولد فيه ، ولم يكن انطوان طوال حياته الى ان عرف جولى قد بارح هذا الحى .

وكانت هناك غرفتان بالدور الثالث وبلا مصعد ، واشترى سريرا ومنضدة وبعض الكراسى من أحد تجار الأثاث المستعمل فى الشارع المجاور . وفى ذات مساء كان فى مقهى فى شارع سان مارتن فقابل اليس التى كانت تعمل فى سيرك ميدرانو الذى كان يعمل هو فيه وقتئذ ، وفى ذات ليلة عاد بها الى مسكنه .

ولم يستطع الآن أن يقول كيف جاء بها معه ؟ ولم يكن فى نيته أن يبدأ معها قصة غرام جديدة ، وكانت أليس فتاة شاحبة اللون لاصابتها بفقر الدم ، وكانت عيناها الزرقاوان شفافتين وكانت ترتدى دائما سترة زرقاء ، وتقضى ساعات طويلة تحدق النظر فى الفراغ !.

وعلى أية حال قد اصطحبها الى بيته لتقضى معه أمسية واحدة فبقيت وفى اليوم التالى كانت هى التى خرجت لشراء بعض الطعام ولم يكن معها متاع ، ولا تملك شيئا سوى ما عليها من ثياب ، وظلت الأسبوع أو الأسبوعين الأولين تغسل ثيابها الداخلية فى حوض غسل الأيدى وتعلقها على الحبل قبل أن تأوى الى الفراش لتنام !.

واستعرض هذه الذكريات ، وعجب من أنه لم يخطر بباله قط وقتئذ أن يسألها من أين هى ؟ ولم يكن يعرف شيئا عن ذلك ، وعلى هذا النحو دخلت حياته وتذكر أكثر ماتذكر شدة بياض اديمها ، ولم يذكر انه رآها تبتسم قط . وبالرغم من وجودها لم يقع اى تغيير فى الشقة ، ولم يتم استكمال الأثاث ، فلم يأت بالمكتب المشهور الذى طالما حلم به .

وعاشا معا كما لو كانا يعيشان فى فندق ، ولم يكن هناك من فارق بين الحالين الا انهما كانا احيانا يمكثان ثلاثة أيام دون أن يسويا السرير وانهما لاياكلان فى البيت الا اذا كانا خاليين من المال الذى يسر لهما الأكل فى المطعم ، وكانا يأويان الى فراشهما فى وقت متأخر من الليل ويقضيان اوقاتا طويلة ينصتان الى أصوات السيارات فى الشارع .

وفى ذات يوم خطر له أن يستخدم أليس مادامت تقيم معه فقام باجراء تجارب التنويم المغنطيسى معها ، وأعد برنامجا يظهران فيه معا ، وفي هذا كانت أليس ترتدى ثوبا أبيض يصل الى قدميها وكأنه قميص نوم ، فكانت تبدو فيه كالملاك !. وكانت تفرق شعرها في منتصف رأسها وتحيطه بشريط ، فكانت بهذه الصورة قوية التأثير وخاصة عندما تقدم أحد الحضور اليها وربط عينيها بمنديل .

واستغرق بعد ظهر يوم كامل فى تعليمها الرموز ، وكانت شديدة الخوف من أن تخطىء ، وذلك عندما يأمرها بتخطى فجوة واشتد الخوف عليها وأثر فى صوتها حتى أصبح كصوت الأطفال أو المرضى الناقهين !.

وفى الحقيقة عجز الآن عن تذكر تفاصيل ملامحها ، وحاول أن يتذكر الشكل أو التعبير ، ونجح فى هذه المحاولة وحدها ،تذكرها وهى ممددة على الأرض والناس مجتمعون حولها ، كما رآها ذلك اليوم من النافذة ، وكان المطر ينهمر بغزارة ، وكانا قد استيقظا مبكرين للحاق بقطار روان بعد الظهر ، ولم يكن لديهما طعام يأكلانه ذلك اليوم . والشهر شهر أبريل ، والطقس معتدل ، فوضعت المعطف فوق قميص نومها ووضعت قدميها العاريتين فى حذائها اذ لم يكن عليها أكثر من أن تعبر الشارع الى متجر الحلوى فى الجانب المقابل للبيت .

وانحنى فوق حاجز السلم وقال لها :

ـ لاتنسى السجائر .

ولم يخطر ببال أحدهما ان هذه ستكون آخر عبارة يتبادلانها ولغير ما سبب ذهب الى النافذة وازاح الستارة جانبا ليرقبها ، بل لينظر الى المطر المتساقط ، فلم تكن العلاقة بينهما عاطفية وان كان قد رآها تعبر الطريق فانما كان ذلك بمحض المصادفة ، وفتح فمه أوتوماتيكيا ليناديها وينبهها الى السيارة الضخمة التى رآها قادمة من الناحية الأخرى ، وسمع ضجيج الفرملة الشديدة ورأى المأساة ثانية بثانية . ورآها رجل البوليس الذى كان واقفا على بعد ثلاثين قدما منها .

وانزلقت السيارةالثقيلة جانبا على الأسفلت حيثتركتعجلاتها آثارا ظاهرة وحدثت المأساة وصاح الناس ، وفتح النافـذة ورأى المعطف الأخضر والشعر الأشقر وذراعا منزوعة على الأسفلتالاسود وسط حلقة من الناس !.

ولم يعرف أحد كيف انزلق حذاؤها وطار ثلاثين قدما .وعندما وضعوها على الحافلة كانت قدماها عاريتين قذرتين ، ولم تجد وقتا لتقول له أى شيء ، هل عرفته ؟ وعندما شق طريقه نحوها كـانت قد حضرتها الوفاة فعـلا ، وانحنى رجل البوليس للفحصوقبعته فى يده .

وقد قص انطوان هذه القصة على جولى فبكت لها .

وعندما التقى انطوان بجولى فى لابوربول كانت اليس هى المرأة الوحيدة التى عاش معها ليلتين ولم يتحدثا قط عن الحب لأن مثل هذا الحديث من شأنه أن يحرجهما كليهما .

وعلى الرغم من ذلك ظلا يتشاركان فى الحياة أربع سنوات أربعا وعشرين ساعة يوميا دون أن يتخذا قرارا بشأن هذا الموضوع الذى جاء طبيعيا ، فعندما يخرج تخرج اليس معه حتى لو لم يكن لدى أحدهما شيء يقوله لصاحبه ، يمشيان جنبا الى جنب ، وتدخل معه نادى الجلوب أو المقهى الآخر بجواره ويجلسان الى المنضدة نفسها وهما غائبا الذهن دون أن تشترك هى فى حديثه مع أصدقائه .

وكان فى ذلك الوقت يلعب البلياردو كثيرا فى الطابق الثـانى من نادى جلوب ، وأجاد لعب البلياردو ، وكانت هذه اللعبة تساعد على براعته فى العابه ، فكان يقضى فى اللعب وقتا طويلا الىالساعة الثانية صباحا .

حتى الآن فانه أحيانا يقوم بالتدريب على كرات البلياردو .

أما منذ أن عرف جولى فانه تخلى عن لعب البلياردو تماما لا لأنها طلبت منه ذلك ، بل لأن هذه اللعبة لم تعد تلائم ظروف حياته الجديدة .

ولم يأسف لشيء . وكان يثير دهشته الى حد بالغ فى أيام مثل هذا اليوم . ان تمضى كل هـذه الأعوام من حيـــاته وهى خمس وخمسون سنة دون أن تترك فى أعقابها شيئا .

وفى الغد سيكون شعوره طيبا فلن يوجه الى نفسه اى اسئلة فيقبل على عمله بمهارة واستمتاع ويهتم بما يجب أن يأكلاه من طعام ويتحدث مع جولى عن الطقس وعن أقوال الصحف .

أما هذا الصباح فلم يكن على حالته الطبيعية اذ كان يعانى من أعقاب الأزمة ، وكان غير راض عن نفسه حتى أن صحته كانت تقلقه ، اذ أن طعنات الألم كانت تخزه فى صدره من وقت لآخر . وعلى الرغم مما قاله الأطباء من أنه لم يكن بقلبه شىء فانه بقيت له شكوكه وخاصة أن جولى التى تبدو عليها الأعراض التى تبدو عليه كانت تشكو مرضا بقلبها .

وسيطرت هذه الفكرة عليه واثرت فيه تأثيرا عجيبا . وكان منهمكا فى طبع النشرة الدورية فوق الصورة مائلة الى أحدالجانبين لتكون اكثر جاذبية واسترعاء للانتباه وسمع صوت امرأته وهى تغسل الصحون فى المطبخ .

ماذا يحدث لو أنها هى الأخرى ماتت ؟.

كان السؤال سخيفا ، ولكنه شعربالحاجة الىالطمأنينة بالذهاب اليها ورؤيتها .

ــ هل تريد شيئا ؟.

ــ كلا بل جئت أقول لك هالو ..

ــ هل هذا صحيح ؟.

ــ نعم .

وكانت شديدة الشحوب وهى اكثر بدانة ، وكانت تزداد بدانة من وقت لآخر وقبلها فى عنقها .

ــ هذا جميل منك .

ولم يوضح لها السبب المعقد الذى دعاه للقيام بهذا العمل .. وعندما فكر فى اليس فكر فى الموت ، ذهبت اليس وحدها بدون قبلة وبدون كلمة عزاء ، لم يناداها قط بكلمة حبيبتى وتساءل:هل خطر له ان يقبلها فى فمها ؟.

يجب أن يكف عن الشراب اطلاقا ، وغالبا ما تساءل : كيف حدث هذا ؟ وكان قد تكلم مع جولى عن هذا الموضوع ثانية فىالليلة

الماضية ، والآن تبين الرد على السؤال ، والآن فقط وهو عائد الى المكتب ليستأنف عمله فى النشرات الدورية .

وكان الأمر بسيطا كالعادة دائما ، كان قد بدأ الافـــراط فى الشراب احيانا منذ خمس سنوات ، وكان ذلك فى الوقت الذى كفت فيه حماته عن الخروج من البيت لما أصاب ساقيها من الـم وورم .

ولقد قضت العامين الأخيرين من حياتها مهيضة الجناح تماما، تجلس من الصباح حتى الليل فى مقعدها المجاور للنافذة . وكانت تبالغ فى تصوير حالتها مما جعلها غير مقبولة او محتملة كما تحب أن تكون وانتهزت هذه الفرصة .

وفى النهاية اقترحت جولى عليه :

ـ يجب أن تخرج للنزهة قليلا .

ورفضت مدام ترافو البقاء وحدها فى الشقة بدعوى انها قد تموت فى اية لحظة ، فاضطرت جولى الى قضاء مصالحها وشراء حاجاتها من السوق فى أثناء وجود انطوان فى البيت ، أو كان أنطوان يقوم هو نفسه بقضاء هذه المصالح وشراء الحاجات !.

ـ أخرج فأنت فى حاجة الى تغيير الهـــواء ولـكن لا تتـأخر كثيرا .

ولم يكن يحب النزهة أو شرب كأس فى أحد البارات القريبـة بل كان يعمد فورا الى الشوارع الكبيرة وكان يقصد تلك الأجـزاء البعيدة منها حيث تعود أن يقيم من قبل وان لم يعد بها أحد ممن كان يعرفهم ، ومع ذلك فكان يذهب اليهـا دون أن يعـرف ماذا يجذبه اليها ؟.

ولم يكن وقتئذ يشرب من أجل الشراب ولكن لاضطراره الى طلب شىء والى تكرار الطلب من وقت لآخر .

وفى ذلك الوقت كانت عداوته منصبة على حماته ، وعنـدما كان يهاجم جولى كان يهاجم لأنها تحاول الدفاع عن أمها .

وتذكرت جولى التاريخ ، وكانت تسجل فى ذاكرتها كل شىء قاله لها فى أثناء حياتهما معا .

على كل حال فأنت من أسرة ترافو وستظلين من هذه الأسرة .

ولم يكن يحمل ضغينة للأب ترافو الذى كان قد مات دون أن يراه أو يعرفه ، وكانت صورته على رف المدفأة يبدو فيها رجلاوديعا به شيء من الخجل والتحفظ ، قضى حياته كلها فى صيدليته حتى أصيب بأزمة قلبية قضت عليه .

وبعد أن قضيا فى حياتهما الزوجية عدة سنوات قصت جولى على أنطوان قصة العار الخفى فى أسرة ترافو ، لم يكن الصيدلى يشرب الخمر ، ولكنه بعد أن جاوز الخمسين من عمره أدمن الاثير الذى كان فى متناول يده طوال النهار ، وكان من العسير منعه من تعاطيه .

ولهذا كانت عند موظف الصيدلية تعليمات بألا يسمح للصيدلى بأن يغيب عن بصره . وفى آخر الأمر جاءت زوجته الى الصيدلية لتقضى فيها معظم الوقت بدعوى مساعدته ، وبدا له أنه وقف على الحيلة .. فعمد الى اخفاء الاثير فى أية زجاجة تحمل اية بطاقة ؛ وبهذا عرض نفسه لأخطار الخطأ فى الزجاجة .

وعندما كان أنطوان يعيرها أنها من أسرة ترافو لم يكن يفكر فى الرجل بل فى السيدة العجوز .

ألم يكن ممكنا أن يعيش المرء بدون اشتغال بأمثال هذه الأمور؟ ففى مساء أمس مثلا كان يسير هو وجولى فى الشانزلزيه وكان الرصيف مزدحما بالناس وكأنهم النمل . وكان الآلاف من الناس يتواكبون ابتداء من الأتوال حتى الكونكورد رجالا ونساء ، شيبا وشبابا ، رجالا فى مثل سنه ، وعائلات تجر أطفالها .

وكانت دور السينما تعلن الأسماء بالأنوار عند مداخلها ، وفى نوافذ الحوانيت أثواب السهرة والأثواب العادية والأحذية والأمتعة الأخرى والناس يدخلون تلك الحوانيت يجادلون ويشترون وفتيات صغيرات يخلعن احذية العميلات ويبدلن غيرها بها ؛ وهناك نافذة حانوت عند الناصية لم يكن بها سوى اللوز المحلى بالسكر وبجوارها نافذة أخرى بها قباقيب الانزلاق على الجليد .

فهل كان عليه أن يصدق أنه هو وجولى وحدهما وسط هذه الجموع يعيشان يومهما فى مأساة يعالجان مشاكلهما ويسألان نفسيهما أسئلة لايجدان لها أجوبة سوى الألم ؟

انهما يبدوان لأعين الآخرين زوجين سعيدين: فجولى مستمسكة بذراعه وهما يمشيان . ولابد انهما كانا يبتسمان فى استمتاع .. ونظرا الى كل ما احتوته نوافذ الحوانيت مما لم يكن فى استطاعتهما أن يشترياه !.

وحاول متابعة فكرته ، كانت لا تزال غامضة، لقد بدا عليهما خلو البال ، يحييان الحياة التى يمكن المرء أن يتصورها ، وكانا زوجين حقيقيين متفاهمين ، ثم جلسا فى مقهى حتى حان موعد العشاء الفاخر فى مطعم .

وكان كل شىء حقيقيا الى حد انهما كانا يبدوان مضحكين للناس الم تضحك الفتاة التى كانت مع الرجل ذى الشارب وهى تنظر اليهما وتهمس ببضع كلمات لصاحبها .

لماذا يكونان شاذين ؟ لماذا لايكون لدى آلاف الناس السائرين على رصيف الشانزليزيه مشاكل من النوع نفسه ؟..

هل كان انطوان هو المخطىء فى أخذه الحياة مأخذ الجد الشديد .

حسنا !.. فقد ادى به هذا الى سؤال آخر ، هذا السؤال جوهرى ، بل كان هو سبب مشاغله ، انه يقضى الأيام بل الأسابيع دون التفكير فى شىء أو على الأقل فى شىء مزعج ويمضى فى أعماله العادية ويقول عبارات هى دائما العابرات نفسها ، ويجد متعة فى المباهج الصغيرة مثل شرب فنجان قهوة فى اثناء قراءة الجريدة ، وهو يرتدى سترته المخملية السوداء قبل أن يدخل مكتبه حيث يستبدل بها معطف العمل وكأنه معطف بقال .

وكان يجد متعة عندما يصل الى احدى القاعات فيضع فى ركن منها حقيبتيه المفرطحتين ويأخذ فى اعداد أدواته وارتداء معطفه ليظهر أمام جمهوره فى الناحية الأخرى من الستار .

أين هو ؟ يجب الا يضيع من يده الخيط ، وظل محتفظا بهوعقد جبينه كما يفعل وهو يفكر فى لعبة جديدة ، ثم تنقضى الأسابيع فلا يوفق الى مثل هذه اللعبة ، وفى مثل هذه الأوقات تفهم جولى مابه فورا فتنظر اليه برقة لا يخالطها قلق .

وتقول له : انك تجهد نفسك بالعمل ؟ وتحاول كثيرا أن تبلغ درجة الكمال : أما الآخرون فانهم راضون .

وتمضى الأسابيع هكذا وقد يخطر ببالك عندئذ أن هذه الحياة عادية ، وبرهان ذلك أن هذه هى الحياة التى تكشفها للآخرين وتتحدث عنها ولا تخجل منها .

وعلى حين فجأة ولأنه شم رائحة رجل يشرب البيرةأخذفجأة فى الشراب لا لأنه يرغب فى الكحول ولا لأنه يحب الخمور .. ولكن ..

ولكن لماذا ؟ هاهو ذا لب المسألة ، وليس وحده الذى بسأل هذا السؤال ، فالرجل ذو الميدالية يبدو ثريا صحيح الجسم بحيا حياة سعيدة وزوجته من أولئك النسوة اللاتى لا يسعك أنت الا تلتفت اليهن فى الشارع .

وفى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا كان هذا الرجل علىالرغم من كل ذلك يشرب الخمر وحده فى اكتئاب ، وعندما التقت عيناه بعينى أنطوان شعر بالخجل ، وبعد بضع دقائق نزع الميدالية من عروة سترته .

ما معنى هذا والممثل الهزلى البدين الذى ابتدع قصة تعاقده؟ فى نيفير وهل يعلم أنه لن يصدقه أحد ؟.

ومن المستحيل أن يصدق المرء أن أنطوان والرجل ذا الشارب شاذان ، وما الرأى بشأن ترافو والأثير الذى كان يدمنه ؟.

وشرب أنطوان الكثير لأنه كان كلما شرب شعر بحافز اكبرللشراب وعندما يعود الى بيته كان يكلم جولى ، وفى الصباح التالى يتصور أنه كلمها مدة ربع ساعة أو ساعة على الأكثر ، وقد قالت جولى له .. انه ظل يتكلم أكثر من ساعتين ونصف الساعة دون أن تقاطعه !.

وقد ظل طوال الوقت مقتنعا بأنه يسرى عن نفسه فقد كان يشعر بأنه شقى وكان ينشد المعونة .

وفى اليوم التالى شعر بالخجل من كل ماقاله الى حد أنه لم يجد فى نفسه الجراة علىالنظر الى زوجتهوتمنى ان يظهرالخضوع طالبا منها الغفران .

فهل كان « للاتصال الانسانى » و «للآخ » و «لروح ترافو » وجود الا فى تصورات المخمور ؟ .

واذن فلماذا يشرب ؟ لأنه عندما بدأ يشرب كان ما يبحث عنه هو ذلك الاتصال الانسانى وتلك الطريقة فى النظر الى الانسانية وفى احساس المرء بها ذلك الانطباع انطباع الصفر والضآلة والعجز أمام القدر الهائل .

ثم يتغير كل شيء مرة أخرى بعد قضاء بضع ساعات فى الفراش يعانى فيها تأنيب الضمير ويصبح عاطفيا نحو جولى ونحو نفسه ونحو شقتهما الشديدة الحرارة ونحو حياتهما .

وعندما عرفه الرجل ذو الشارب أخيرا بعد تقليب ذاكرته وقتا طويلا أحمر وجهه خجلا .

اذن فقد كان هو الآخر فى حرج بشأن سلوكه فى الليلة السابقة .

ماذا كانت أفكاره فى أثناء شرابه وهو منحنى الرأس ممسك بحاجز البار باحدى يديه ؟.

كانت الكلمة قوية ولكن أنطوان لم يكن ممعنا فى الخطأ عندما زعم فى أثناء انفجاره أنهما أخوان .

هل يمكن أن تكون مستعدا لتناول الغداء فى مدى عشر دقائق ؟..

ـ متى شئت .

لم يكن جائعا . فقد اكلا كثيرا فى الليلة السابقة بالمطعم .. وكانت جولى لاتزال تستعرض سعادتها الجديدة فى أنحاء الشقة ، وعندما نظرت الى زوجها كان فى عينيها تساؤل ، وكان واثقا من أنها كانت تتساءل كم تدوم هذه السعادة ؟.

ولقد اثرت فيه وفاة اليس منذ وقت طويل ولم يكن مبعث تأثره الحب أو حتى العطف ، ولكن قسوة الحادث اذهلته وكذلك بشاعة المنظر الذى شهده من النافذة فهو لايمكن أن ينسى مثلا القدم القذرة .

وجمع بعض الأصدقاء لحضور الجنازة بدافع الاحساس نحو الفتاة الميتة لانهم لم يستطيعوا العثور على أحد يمت لها بصلة

القربى ، ولكنه لم يزر قبرها قط ولن يستطيع العثــور على هذا القبر ثانية .

الا يزال هناك قبر ؟ ربما نعم . واذا تذكر جيدا ماقيل له فان الجثث تحمل الى حقل الخزاف اذا لم يستطع أصحابها شراء قبر لها فى غضون خمس سنوات . ولم يخطر بباله أن يشترى لهاقبرا كما لم تخطر بباله فكرة اختيار فتاة أخرى تحل محل أليس فى مزاملته فى اللعبة ، وعلى كل حال فلم تكن هذه اللعبة من الألعاب التى تخصص فيها لأنها لم تكن تتطلب مهارة قط ولا خفة حركة ، بل كانت لعبة آلية .

بل انه لم يغير شقته ففيها التقى بجولى ، وكان ما أثار دهشته قليلا فى أول الأمر ــ عدم وجود أحد ما الى جواره ، فكان عنــدما يبرح مقهى أو مطعما يتلفت حوله كمن كان قد نسى شيئا .

ــ هل أتممت نشراتك الدورية ؟.

ــ بقى أن أضعها فى أغلفتها .

ــ هل تريد منى أن أساعدك فى ذلك ؟.

ولقد كان من عادته أن يعد الأغلفة مقدما فى الأيام التى لا يجد لديه عملا آخر يقوم به . ولقد كان دقيقا غاية الدقة فى كل شىء له صــلة بمهنته .

ــ كيف حال كبدك ؟ .

وجلسا الى المائدة وكان الثلج ينهمر فى الشارع وتعلق بعضه بقبة الكنيسة الروسية .

ــ أنا احسن حالا .

ــ يجب أن تزور بورجوا .

وكان بورجوا هو طبيبهما وجارهما منذ وقت طويل وقد ظل يرعى مدام ترافو حتى ماتت ، وكان يعاملهما كما لو كانا ولديه . وكان قد بلغ الثامنة والسبعين من عمره ولم يمنعه تقدمه فى السن الى هذا الحد من التنقل طوال نهاره وحقيبته فى يده ومظلته فى يده الأخرى وقد انحنت قامته الى الأمام حتى يخيل الى رائيه أنه على وشك الوقوع !

ولم يكن بورجوا ليصف دواء غير الحبوب والأقراص والنقط وبعد كل زيارة من زياراته يمتلىء دولاب الحمام بالعلب الصغيرة المملوءة بالحبوب والأقراص ويظل انطوان وجولى أسابيع طويلة يعدان النقط التى يسقطانها فى كوب الماء عدة مرات يوميا .

ـ أليس مريحا لك البقاء هنا فى البيت ؟.

كان الأثاث من متاجر الأثاث القديم فى شارع كورسيل، وكان انطوان فى أول الأمر لا يشعر بالارتياح له ، ثم تعوده وألفه ، بل لقد أحبه ولم يستبق اية قطعة أثاث مما كان فى مسكنه بشارع التمبل سوى صورة روبرت هودينى الساحر المشهور فى اطار خشبى اسود .

وعلى المدفأة ، وكان بجوار صور ترافو العجوز وأخ لجولى الذى قتل فى الحرب العالمية الأولى شمعدانان من النحاس ومنظر لمدينة لورد على كرة زجاجية .

ـ هل تنوى العمل طول فترة بعد الظهر ؟ .

ـ لماذا تريدين معرفة ذلك ؟ .

ـ انه لا يهم .

ـ قولى لى السبب .

وكان الطعام جيدا وكان يحب الرائحة المتصاعدة منه تملأ الشقة وكانت جولى بارعة فى صنع الفطائر أيضا براعتها فى الطهى وكانت تصنع كعكة كل يوم أحد ..

ـ انها مجرد فكرة شاردة .

ـ ما هى ؟ .

ـ ان هذا يتوقف على نوع عملك ..

وكانت دائما تشعرنحوه بشىء من الخوف ، وقد حدث ذات مساء وكان هو فى هذه الحالة نفسها حدث أن قال لها . ان خوفها منه على هذه الصورة يجعلها تبدو قبيحة وكان مقتنعا بأنه يكلمها برفق ، ولكنها لم تفهم ، فاعتبرت هذا القول نقدا فهل أساء التعبير عما يدور بخاطره ؟

ـ انت تعرفين أنه ليس لدى هذا الأسبوع شىء هام .

ـ يعرضون الآن فى سينما واجرام فيلما جيدا ، ولكننا خرجنا بالأمس ، وعلى كل حال لا تظن أنى مصرة على الذهاب الى السينما اليوم .

ولم يظن شيئا قط أو بصراحة ظن أنها لا تزال خائفة تقول لنفسها .انه فى حاجة الى الراحة وانه من الأفضل ان تسرى عنه

وكان ذلك سذاجة منها فقد كانت تعامله كما لو كان طفلا ..

وكانت تنتظر رده فى لهفة الى حد دفعه الى التظاهر بأنه متحمس جدا لتنفيذ هذه الفكرة .

ـ فكرة رائعة ! هل تعرفين موعد الحفلة ؟ .

ـ الحفلة الأولى فى الساعة الثالثة والثانية فى منتصف السادسة .

أما الحفلة الثالثة فتتأخر الى ما بعد العشاء .

اذن فقد اطلعت على الجريدة اذ رآها مفتوحة عند صفحة الملاهى .

ألم يكن لهذا الحادث تأثير على المسألة التى فكر فيها طوال الفترة الصباحية ؟ لأنها كانت مشغولة الخاطر حتى فكرت فى مشاهدة الفيلم . وفى الواقع ربما كان فى مشاهدة الفيلم اشباع لهما كليهما ، كان الفيلم كوميديا ولهذا سيضحكان كثيرا بين لحظة وأخرى .

وقد حدث ذات مرة بعد وفاة حماته أن وقع بينهما منظر مؤسف ، ولم يكن ذلك المنظر فىالبيت بلكان فى الشارع ، وكان هو المنظر نفسه دائما : ظلا يمشيان ويمشيان وهما يتناقشان مشيا لا ينتهى والناس يتلفتون اليهما وهم يمرون بهما ، حتى وجدا نفسيهما عند شاطىء النهر ، وفكر أنطوان فى احتمال القفز الى النهر وانهاء الجدل .

ولم تمض على ذلك ساعة حتى كان كلاهما قد هدأ ودخلا احدى دور السينما دون أن يعرفا ماذا يعرض فيها وذلك لمجرد الهرب من أفكارهما ، ولم يعرف من منهما كان الذى اقترح دخول السينما ؟.

وقبـــل أن تنقضى عشر دقائق عليهما فى ظـــلام السينما بدأ انطوان يضحك مع الضاحكين ، وبعده بقليـــل ضحكت جولى على الرغم من محاولتها الامتناع عن الضحك وكتم ضحكها بمنديل يدها .

فعلى أى شيء يدل هذا ؟ ربما لم يدل على شيء وعلى الرغم من ذلك كانت هناك دلالة ، أما اليوم فالحالة مختلفة عن الحالة وقت ذاك . ان جولى تخاف أن تفقده ، وكانت مشغولة الخاطر وكانت ترعاه كما ترعى رجلا عليلا ربما تحدث له نكسة فى اية لحظة .

وكانت شديدة الخوف من أن يمل الجلوس وحده معهـا فى الشقة ، ولهذا كانت تبحث عن تسلية .

ـ خذ معك الـكوفية ، فقد خرجت هـذا الصباح اشترى بعض الحاجات من السوق ولفح البرد وجهى .

كانت تعنى به أشد الاعتناء ، فقدكانت تريده أن يكون سعيدا حتى تستطيع الاحتفاظ به وحتى لا يملها ! .

ولقد كانت فى الليلة الماضية غيرها اليوم .. كانت وقتئـــذ متهافتة .. ضحت باحترامها ، وألقت بنفسها عند قدميه وقـد عقدت فمها باكية :

ـ لا تذهب يا أنطوان ! لا تتركنى أبدا ! .

كانت صادقة ، وكانت تعلق حياتها كلها عليه .

كانت تحبه .

وكان يحبها .

ولـكنها كانت كأمها لا تخاف شيئا خوفها الوحدة .

وقد اعترفت بذلك فى الليلة المـاضية .

ـ عند لابوربول كنت انا الذى اقترحت الخطوة الاولى .

وفى تلك الفترة كانت امـرأة وكان هو رجلا ولم تكن بينهما اية مشاركة وحولهما كان رجال ونساء .

ولم يكن الأمر عند انطوان حبا من أول نظرة ، صحيح انها لم تكن حسناء ، ولم تكن أمها وحدها هى التى تثبط النيات الحسنة بل كانت جولى هى الاخرى مصابة بشيء يسير فى عينيـــها ، ولم يعد يلاحظ ذلك منها ، وقد أثار عجبه الآن تذكره هذا ، ولابد أن يكون قد فكر أو خطر بباله كما يخطر ببال أى واحد آخر أن يهـــا

حولا ، اما الآن فهى تبدو طبيعية تماما الى حد انه لم يكن يحب لها ان تكون غير ما هى عليه الآن :

وعلى أية حال فليست هذه المسألة هى الهامة هنا بل كانت الفكرة التى خطرت بباله فى الوقت الذى لم تكن هنـاك علاقة محددة بينهما هى :

ـ سيكون معى أحد ما .

لا ليرعاه بالضرورة ، فبالنسبة للرعاية كان عنـده اكتفـاء ذاتى ، ولم يفـكر فى الأمر من الناحيـة العمليـة ، بل انه لم يقل لنفسه : انه لن يستمر وحيدا .

ولكن الفكرة هى أن يكون هنـاك من يفكر فيه ويعتمد عليه وبالاختصار من يصبح انطوان عنده الدنيا جميعا .

وقد حدث !

ـ سأطفىء موقد الغاز .

وانتظر على السلم وهو يعلم أنها ستسأله « هل المفتاح معك؟ .

وابتسم ابتسامة غامضة لا تعنى شيئا على وجه خاص بل ربما كان فيها شيء ، من سخرية ، تحسس المفتاح فى جيبه .

وبسبب الطقس لم ترتد احسن ثيابها وسبقها قبل ان تحاول تأبط ذراعه حتى بلغا الرصيف .

الفصـــل الخامس

وكان جدول عملها صباح يوم الأحد هو نفسه لا يتغير حتى فى أدق تفصيلاته الا فى فصل الصيف حين يذهبان الى الريف . وقد تعودا هذه العادة شيئا فشيئا ، وفى البـــداية كانت تنقضى بين المرة والمرة فترة تتردد قصرا وطولا ، وكانا يبتكران اساليب لملء هذه الفترات كما لو كانا فى حاجة الى تراث تقليدى يصـفانه لنفسيهما :

فيستيقظ انطوان صباح الأحد متأخرا عن موعد يقظته صباح أى يوم آخر لغير ما سبب ففى الأيام الأخرى من أيام الاســبوع لا يكون هناك ما يضطره الى القيام فى موعد محدد ، ويبقى فى

فراشه حتى الساعة التاسعة حتى لو كان بين اليقظة والنوم على حين تسرع جولى فى ترتيب الشقة ، وكان هذا كافيا لأنها كانت لا تجيد تنظيف الشقة يوم السبت وكان هذا هو تعبير أم انطوان وقد سمع جولى ترددە فكانت تثير اشجانه .

ـ وكانت جولى توقظه بأن تأتيه بأول فنجان قهوة فى اللحظة التى تبدأ فيها الكنيسة الروسية قرع أجراسها تدعو المصلين لصلاة الساعة التاسعة وحالما يبرح الفراش يلقى نظرة على الشارع فيجده زاخرا بالحياة على نحو يفوق ما يكون عليه فى بقية أيام الاسبوع ..

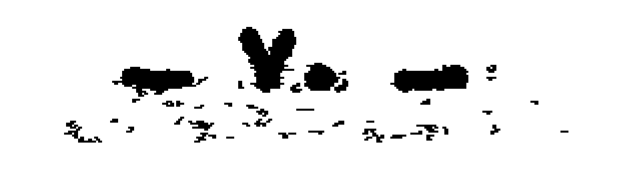
وكان الثلج قد تساقط ليلا ؛ ولأول مرة كان الثلج يغطى الرصيف كما يغطى الطريق واسطح البيوت وحالما تقترب من النافذة تحس موجة البرد آتية من الخارج ..

وقدمت له نوعا خاصا من الفطائر لا تقدمه له فى أيام الاسبوع الأخرى لا لأنه هو الافضل ، ولكن لمجرد التغيير وايجاد فارق بين الايام . وأخذ انطوان يقرأ صحيفته وهو جالس فى المقعد الذى كان من عادة حماته الجلوس فيه على حين أخذت جولى تسوى السرير وتنظف الغرفة وتعد أفضل ثيابها . وأخيرا جرت الى الحمام .

فهل أخذت حماما ساخنا أم أنها أطالت الاستحمام فحسب ؟ على أية حال خرجت من الحمام متوردة الوجنتين مثل انطوان نفسه عندما كان طفلا صغيرا وتشرف أمه على استحمامه ايام السبت وسط طست فى المطبخ .

وكان هناك دائما شواء تضعه فى الفرن قبل الذهاب الى الكنيسة وتتيقن انه لن يحترق عندما يحين موعد الغداء . ولم تكن تحب القيام بهذا العمل وهى مرتدية افخر ثيابها ، وكانت فى عجلة من أمرها أيضا ، ولهذا كان هذا اليوم وحده هو الذى يراها فيه شبه عارية فى المطبخ .

ولم يذهب انطوان الى الكنيسة للصلاة ، ولم تقل له هى شيئا قط عن ذلك ، وهكذا كانت الأمور تجرى فى عائلتها ، كانت هى وأمها تذهبان الى الكنيسة على حين كان الأب ترافو يبقى فى البيت .



والفارق الوحيد بين الحالين هو أن الصيدلى كان معاديا للكنيسة وكان عداؤه شديدا ، أما انطوان فلم يكن كذلك .

وكانت أم انطوان كاثوليكية هى الأخرى،أما أبوه فأنه لم يعرف شيئا عن آرائه لأنه لم يعرفه ولم يسمع عنه الا القليل النادر .وكان انطوان فى طفولته يذهب الى الكنيسة ، ثم كف عن الذهاب اليها لغير ما سبب ، ولكنه كان أحيانا يناجى ربه بينه وبين نفسه : « يا الهى دع هذا الأمر يحدث أواللهم لا اعتراض . »

وكان أحيانا يأخذ على نفسه العهود والمواثيق لله فى شكل قريب من المساومة : اذا لم أقرض غدا قدمت مائة فرنك لأول متسول يقابلنى ».

وكثيرا ما يفى بهذه العهود والمواثيق أما جولى فقد كانت فخورة بانتمائها الى ابروشيه سان فيليب دورول « وهى أشهر ابروشية فى باريس .

وعندما اتمت استعدادها تعطرت بعطر لا تستخدمه الا أيام الآحاد والا عند ذهابهما الى المسرح .

وقالت له : « راقب الشواء ، فموقد الفاز فى حال جيدة ولا حاجة بك الى لمسه » .

وقبلته وراجعت نقودها فى الكيس ، وقبل خروجها القت نظرة أخرى على المطبخ .

ـ الى اللقاء القريب .

وأصبحت الشقة كلها له فكان لذلك انطباع عجيب عليه ، وكان أول ما اهتم به هو الذهاب الى النافذة ليطل منها،وكان يعرف مدى ما تستغرقه جولى من وقت فى هبوط السلم والسير على الرصيف حتى تصل الى الناحية وهو لن يستطيع رؤيتها حتى تصل الى ناصية شارع سان هونوريه وقد عبرت الشارع الرئيسى وكانت مراقبتها هكذا من هذه النافذة أمرا غريبا كما لو كانت امرأة مجهولة تعبر الطريق .

وفى هذا الصباح وقبل أن يستحم دخل المطبخ وفتح الدولاب وكان يعرف انه لم يعد فى البيت أى « روم » منذ تلك الأمسية فى بورج لاريه . اذ لم يعودا يشربان خمرا مخافة ماقد يترتب على ذلك

من نتائج ، ولكن كانت هناك عادة زجاجة من نبيذ ماديرا ، وكان كل مايريده هو أن يأخذ منه جرعة صغيرة .

وكانت الزجاجة فى مكانها ، ولكن لم يكن بها سوى القليل جدا فى قاعها ، ولو أخذ منه شيئا للاحظت جولى ذلك ، وكان مقتنعا بأن هذا قد حدث بالنسبة للماديرا وبالنسبة للروم . ولم تذكرهى شيئا عنه ، ولكنها كانت كلما عادت من الكنيسة تدخل المطبخ ثم تنظر الى أنطوان فى قلق ، هل وضعت علامات على الزجاجات ..

وقد استحم وكان استحمامه مغايرا لاستحمامه فى اية مرة أخرى لأنه كان وحده ، ولم يجد تفسيرا لموضع الاختلاف . فهومثلا عندما يخرج من الحمام فى أيام الآحاد يمشى فى انحاء الشقة عاريا تماما بل قد يمضى وهو بهذه الحال الى النافذة ويطل منها وهو مطمئن الى انه لن يراه أحد اذ لم يكن فى مواجهة النافذة سوى جدران الكنيسة .

ولما لم يستطع أن يأخذ جرعة من الماديرا شعر بضيق ، ولكنه رفض الاعتراف بهذا لنفسه ، ولم يحقد على جولى ، فلم تكن الغلطة غلطتها ، ولابد أنها فى هذه اللحظة تصلى من أجله على صوت الأرغن الضخم ، ولما عادت من الكنيسة كانت على غير ما كانت عليه عند ذهابها اليها . كما لو كانت قد اتخذت قرارات صالحة ، ومع ذلك ظلت محتفظة ببعض الشىء بطابع حمايته .

وكان من عادتها فى الأيام الماضية من غير شك أن تصلى من أجل أبيها على النحو نفسه ، فقد كان أنطوان هو الآخر مذنبا .. وكانت أمها تهاجمه صراحة مستندة الى قوة الفاتيكان وكبار رجال الدين وملايين المسيحيين المخلصين لأنها كانت تصف انطوان بأنه رجل لاعقيدة له .

لماذا اتجه تفكيره الى هذا ؟ كان ذلك الصباح صباح يوم أحد وهو يحب صباح الأحد وكان للثلج سحره . وكان أنطوان أحيانا يسمع تراتيل المرتلين فى الكنيسة الروسية ، وأحيانا لايسمعها .. وكان هذا يتوقف على الطقس وربما توقف على مافى الهواء من رطوبة .. أما اليوم فهو يستطيع سماع أصوات المرتلين .. انها أصوات رجال ذوى رجولة .

وارتدى ثيابا داخلية نظيفة ثم ارتدى أحسن بنطـلون عنـــده وسترته المخملية وأخيرا دخل مكتبه حيث وضع الحقيبتــين على الرف ليتفرغ لعمله المحبوب ، وكان عليه في مساء ذلك اليوم ان يقدم عرضا فى قاعة البلدية وقد طلب اليه أن يكون برنامجه تربويا على أن يعقبه محاضرة بالفانوس السحرى .

وسواء كان برنامجه يستغرق نصف ساعة كالحال في هـــذه الليلة أو كان يستغرق امسية كاملة فقد كان يبذل عناية كبيرة فى اعداد قائمة ألعابه وترتيبها على نحو تصــاعدى حتى تبلغ الذروة .

وقد أجمعت الآراء على أن أنطـــوان فى حفله هذا لايبارى . وكانت غرفة العمل عند حائكة الثياب خالية ولا أضواء بها . وتذكر جملة صغيرة كانت جولى قد قالتها فى الليلة الماضية اذ كانت قد سألته وهما على مائدة العشاء :

ـ هل سيكون دخول الحفل بأجر ؟ .

وافترض أن يكون الدخول بأجر وربما كان الأجر رخيصا كما هى العادة فى مثل هذه الأحوال .

ـ هل يستطيع أى واحد الذهاب اليه ؟ .

وربما لم يرد عليها ، لم يفكر فى ذلك وقتئذ وشعر أنها لاتزال متلهفة على الجواب ! ربما لأنه لم يكن قد استعاد توازنه بعد ،ومنذ تلك الأمسية قد يحدث له على غير انتظار أن تخطر له فكرة عارضة أو ذكرى عابرة أو رائحة فيندفع الى الشراب على الرغم من ارادته والى التأملات التى لا حد لها .

وقد قالت له مثـلا منذ وقت طويل جدا بجدية غير عادية :

ـ أرجو منك فضلا واحدا يا أنطوان هو ألا تكذب على حتى لو كان فى الصـــدق ما يؤلمنى أو يحطم قلبى فانى افضـــل معرفة الحقيقة .

لماذا طفا هذا الخاطر على السطح ؟ لأنها كانت قد قالته له وهما معا على الفراش بعد وقوع الأزمة . فهل هما لايزالان على الفراش؟ لا أهمية لذلك . وعلى اية حال لقد زالت حالة التوتر .

ـ هل تتصور أنك كنت الذى اقدم على الخطوة الأولى ؟ .

وان لم تكن هذه العبارة هى نص العبارة التى قالتها فانهابالمعنى نفسه ، وبعد ذلك سألت السؤال الذى يشغل ذهنها .

ــ لماذا أحببتنى ؟.

ولم يكن مستطيعا أن يقـول لها الحقيقـة فى رده على هـذا السؤال ، وكان أبعد ما وصل اليه من صدق هـو عندما ذكر لها وقتئذ من أنه وحيد فى الحياة .

وكان هذا صحيحا ، ولكنه لم يشعر بأى عناء منه ، اذ تعـوده وقتا طويلا منذ أن ماتت أمه ، وكان هو وقتئذ فى السابعة عشرة من عمره ولا يستطيع أحد أن يقول : انه لم يشعر بالوحدة وهو مـع آليس .

وكانت جولى تحب دفعه الى الكلام عن أمه وعن طفولته ، ولـم يكن واثقا من أن هذا بسبب دوافع خالصة . وبالرغم من كل شىء فهى من أسرة ترافو ، وقد نشأت فى بيئـة متوسطة واستطاعت اسرتها أن ترتقى اجتماعيا ، ويظهر أثر هذا فى سلوكها فى الحيـاة وفى معاملتها الباعة .

اماهو فقد بدأ حياته منأول السلم فى طبقةعاملة قليلةالدخل، واذا لم يكن أحد قد حدثه عن أبيـه فربما كان هناك سبب وجيـه لاغفالهم ذكر أبيه : اترى جولى كانت تستمتـع وهى تدفعه الى التحدث عن طفولته بأن أمه كانت تعمل فى مغسل وأن هذه الأم قد الحقته بالعمل صبيا عند مجلد كتب نهارا على حين كان يدرس فى مدرسة مسائية وهو فى سن الرابعة عشرة من عمره ؟.

ولماذا تجليد الكتب ؟ لأن مجلد الكتب كان وراء البيت الـذى يقيمان فيه ، وربما كان ذلك لأنه يتعلق بصناعة الكتب وكانت أمه تحب الكتب وان لم تعرف القراءة ، وظل يعمل هناك أربع سنوات ولم يأسف قط على ضياع هذه الأعوام الأربعة فى تلك الصناعةلأنها نمت براعته اليدوية واحساسه بالدقة .

وكانت أمه تشترى اللحم الرخيص لطعامهما ، تلك الأجزاء من اللحم التى لم تكن تباع الا طعاما للقطط !.

وكان مقتنعا بأن جولى كانت تجد متعة فى شعور الحزن له . وكان يغضبه أن يسمعها تتحدث عن البيوت الثـلاثة التى تملكها

أسرتها ، ومن بين هذه البيوت السكنية ذلك البيت الذى فيه الصيدلية التى أصبحت فيما بعد مخزنا للخمور ، ثم هناك بيتان آخران فى آخر شارع السيدات .

فهل سيعترف بأن هذه البيوت كان لها تأثيرها فى اتخاذ قرار الزواج من جولى ؟ ولا بد أن يكون هذا الخاطر قد خطر ببال الكثيرين .

ولم تخف حماته اقتناعها بهذا ، ولم تكن ترى فيه أكثر من حاو أو مضحك اجتذبته أموال ترافو .

ولم يكن هذا صحيحا بصراحة . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يفكر فيها فى هذا الأمر الذى كان يعتبره هاما كل الأهمية وخاصة لأنه كان يشك فى احتمال أن تكون لدى جولى الفكرة التى كانت لدى أمها .

ولم تكن البيوت الثلاثة تدر كثيرا من الايراد وهذا أمر لم يخطر بباله وقتئذ ، ولما كانت البيوت تتطلب كثيرا من الاصلاحات وتتكلف كثيرا من الضرائب فانه كان يحدث أحيانا ألا يبقى شيء من ايراد تلك البيوت لجولى .

ولم تكن للمال الأهمية الأولى ولا كان الحب من أول نظرة ؟ وكانت ذاكرته بصدد هذا كله واضحة دقيقة غاية الدقة ، كان فصل الصيف متألقا ذا رداء لم يشهد أحد له من قبل ولا من بعد مثيلا وكان أنطوان فى ذلك الصيف يعمل فى كازينوهات باريس كما كان يدعى لاحياء حفلات فى الريف .

وتعاقد فى لابوربول على احياء اسبوع فى فندق قريب من محطة السكة الحديدية وكان الفندق متواضعا بعيدا عن الفنادق الراقية ، وفى هذا الفندق كانوا يقدمون له الطعام والشراب والمأوى مقابل قيامه بعرض ألعابه على النزلاء مجانا !.

وفى خلال ذلك الأسبوع لم يلاحظ جولى وهى الأخرى لم تلاحظه طبعا ، وفى الليلة التى قدم فيها آخر عرض لألعابه انتهى من أداء برنامجه ونزل الى غرفة المائدة وهو بزى العمل ، ولم يكن هناك سوى النسوة وبعض الأطفال ، وكانت بعض النسوة من أوساط العمر والأغلبية من الطاعنات فى السن .

وان كان قد لاحظ وجود جولى مع أمها فى الصف الأول فقد كان سبب هذا أن عينيها لم تبرحاه فى أثناء ادائه العابه طـــوال الأمسية وكان فى العينين اعجاب شديد يشعر المرء بالارتباك .

وكان فى وجه جولى نضرة كما كانت بارزة خصوصا فى جلستها على المقعد ، وطلب منها أن تمسك الحلقات له فاهتزت انفعالا .

وفى كل جمهور من الجماهير التى يعرض انطوان فيها العابه شـــخص ما مثـــل جولى ولم يكن من قبـــل جولى يعير مثـــل هؤلاء الأشـــخاص اهتمـــاما . ولم يكن بينهمـــا غير تلك النظـــرات المتبادلة واتصـــال الايدى عند امساك تلك الحلقـــات وكان من المحتمل أن يســـافر الى مونت دورى تنفيذا لتعـــاقده هناك لولا أن تأجل سفره الى تلك المدينة وذلك لأن المغنية التى كانت تغنى هناك قد مد تعاقدها اسبوعا بسبب شدة اقبـــال الجمهور على غنائها .

وبقى فى لابوربول ذلك الأسبوع لأن أصحاب الفنـــدق كانوا يعنون به ولم يكن بقاؤه بسبب جولى كما قد يخطر ببالها ، بل لقد اقتنعت به فيما بعد ، ولم يكن يعتبرها وقتئذ أكثر من فتاة مجنونة بل قضى اليومين الأولين من الأسبوع الثانى يتحاشى لقاءها .

وفى مثل هذا الفندق لايستطيع الناس تحاشى بعضهم البعض الآخر طويلا ، وحتى فى المدينة حيث يسير الناس على مهل للتنزه فى شوارعها لابد أن يلتقى الناس .

واخيرا كان صاحب الفندق هو الذى قدم كلا منهما للآخر .
وقال صاحب الفنـــدق :

ـ هل تصنع جميلا معى وتقبل دعوة جولى وأمها لشراب الشاى معهما ، ولن يلزمك هذا شيئا أبدا يا صديقى فهما عميلتان لى تأتيان كل عام لعلاج حلق الأم ؟ .

ـ هل كانت الصغيرة هى التى طلبت هذه الدعوة ؟ .

ـ لقد جاءتنى وحمرة الخجل تغطى وجهها وقالت : انها تريد أن توجه اليك بعض الأسئلة بشأن العابك . ويبدو أنها مجنونة بألعاب السحر .

وكانت قد اشترت كتاب «العاب السحر » من المكتبة وعندما جلس ثلاثتهم لشرب الشاى تبين انها قرات الكتاب كله من الغلاف الى الغلاف .

وجلست مدام ترافو فى مقعدها متجمدة ولم تسأل أكثر من سؤالها :

ـ هل يلعب فى السيرك أيضا ؟. ولما أجاب بالايجاب أصرت على تسميته بالمضحك .

وقابل جولى بعد ذلك مرتين بقرب الينابيع الحارة وتمشيا معا .

ـ اذن فأنت تقيمين فى باريس ، متى تعودان الى هناك ؟.

وتجهمت واعتراها خجل بنات المدارس ونظرت الى ياقة معطفها حيث كانت هناك شعرة من شعرها فرفعتها ولم تلقها أرضا ولابد انها احتفظت بها طوال الطريق ثم وضعتها فى كتاب أو فى ظرف ..

ووجدها عجيبة وبها بعض الغرور لأنها حدثته عن الصيدلية والبيوت الثلاثة والشقة التى تسكنها عائلتها فى شارع دارو بحى الأتوال .

ـ هل تعد بزيارتنا ؟ وليس هناك ما أدعى للاثارة من مهنتك واحب أن تزيدنى حديثا عنها ! .

وكان هذا القول مؤثرا ، وعندما سافر أوصلته حتى المحطة وأمسكت يده بيدها المبتلة عرقا وقتا طويلا بعد أن منحته هدية هى سكين لقطع الورق وسلة للفاكهة ، ولم يكن من عادته أكل الفاكهة ، ولكنه لا يزال يحتفظ على مكتبه بسكين قطع الورق ، وتعلق جولى عليها اهمية كبيرة وانها لتكتئب أن رأته يكف عن استخدامها فى فتح رسائله ! .

وطوال رحلته بعد ذلك ظل يرسل لها بطاقات البريد من كل مكان يحل فيه كما طلبت منه ذلك ، وكان يأسف لها .

وكذلك أسف لها عندما استقر به المقام فى باريس ووجد أن دعوة رسمية قد وصلته تدعوه فيها لرؤيتها فقرر أن يذهب اليها .

ان الشقة فى شارع دارو لم تتغير الآن عما كانت عليه حين كان يزورها فيها الا فى انغرفة مكتبه الحاليةكانت غرفة حماته.

وكانت جولى تحبه حقا الى درجة بلغت فيها حد السقم والحماقة المطلقة . فكانت تصر على أن تعرف أين يقوم بعمله وتواريخ حفلاته ؟ .

وكانت تحضر تلك الحفلات مع أمها التى لم تكن تسمح لابنتها بالخروج وحدها .

وفى ذات يوم ذهبالى موعد لها فى مسكن الأسرة ولم يجدها فقالت له أمها :

ـ ان الفتاة خارج البيت ولا جدوى فى البحث وان من الأفضل له أن يجلس معها ويتحدث اليها .

ولا يزال انطوان يذكر حدة صوتها وتقطع عباراتها .

وكان قد أتم الرابعة والأربعين من عمره ، ومع ذلك اضطر الى البقاء والاستماع الى حديث الأم وهو حديث مذل مهين ، وتصور أن جولى كانت فى مكان ما بالشارع نفسه وكانت تعلم ما يحدث فى الشقة .

ولم تطلب اليه أمها أن يخلع معطفه أو قبعته برغم حرارة الشقة ، وشعر بالأسف لجولى التى لابد أن تكون على الرصيف المقابل ترقب الشقة فى انتظار قراره .

ولم يكن هو الذى اختار أليس ولم يكن شقيا معها ، ولم تحبه أليس كما تحبه جولى ، وكان حضور أليس اليه لأنها لم تجد مكانا آخر تذهب اليه .

ولم يكن من غير المقبول عنده أن تحبه جولى الى هذا الحد الذى اضطرت فيه الأم الى الاستسلام لمشيئتها كما أنه لم يكن من غير المقبول عنده أن يجد نفسه فى شقة حقيقية ومؤثثة فعلا يجد فيها وجبات طعامه جاهزة عند عودته من عمله ، وكانت البيوت الثلاثة ضمانا للحياة ، وكان ما يدخره من مال قليلا ولا يزيد رأس ماله على عدته وأدواته وماذا لو أنه مرض ؟.

وقالت له أم جولى : انها تنتظر منه أن يبلغها بنياته عندما يستقر على شيء منها ، وأعربت عن أسفها لأنه لم يبلغ به الذوق السليم حد التحدث فى هـذا الشأن من تلقاء ذاته ، كما يقضى بذلك حسن السلوك .

وظلت حماته حتى وفاتها ، وهذا أسلوبها فى الحديث معه ولابد أنها كانت تفكر فى مثل هذه العبارات فى أثناء فراغها .

وقال : نعم .

وتم الزواج فى الشهر التالى فى كنيسة سان فيليب دو رول وانقضت ستة أشهر أو ربما سنة حتى استطاع أن يحب جولى !

وكانت مدام ترافو قـد اشترطت أن تقيم مع ابنتها بعد زواجها اذ كانت تخاف الوحدة خوفا شديدا .

وثارت أولى المنازعات بين انطوان وحمـاته بشأن الفوارق الطبقية بينهما .. فكانت تقول مثلا : ان أمثالنا من الناس ..! وان هذه الطبقة من الناس لاينتظر منها غير ذلك !

وحاول أن يقنعها ببعض الحقائق التى بدت بسيطة وانتهى به الأمر الى تبين أن جولى تعتنق آراء أمها نفسها فى مثل هذه المسائل ولم يكن الذنب فى هذا ذنبها هى ولا ذنب مدام ترافو . واتضح له من معاشرته لهما انهما مسكينتان فى حاجة الى شيء ما يستمسكان به ، شأنهما فى ذلك شأن سواهما ولم يكن لهما من خيار ، وقد فات أوان امكان التغيير حرصا على الخجل .

وكانت جولى تريد زوجا لا أى زوج بل تريده هو . وقد بذلت قصارى جهدها فى الحصول عليه بغض النظر عن أى اعتبار آخر .. واصبح لها .

تلك كانت فكرته الأولى وقت أن لم يكن قد عرفها جيدا فلما عرفها تبين أنها هى التى اصبحت له بدلالة شدة خوفها عليه من أن تفقده .

وكان هذا يحدث عندما يشرب الخمر فلا تستطيع الوصول اليه ويستبد بها الذعر ، وبدلا من أن تقول ما يجب عليها قوله فى مثل هذه الظروف تتجمد وتصمت وتصبح باردة كالثلج .

واساء فهم موقفها فى أول الأمر وظنـه كبرياء ثم اتضح له أنه الخوف ، وبسبب هذا الخوف أحبها .

افلم يكن هو الآخر خائفا من أن يعود وحيدا كما كان قبلها ؟ وحتى عنـدما يشرب الخمر لم يكن يقصـد بذلك أن يتخلص من سيطرتها عليـه ولم يكن يحلم باستعادة حريته ، بل كان الذى يغضبه هو انها لم تبـذل الجهد الواجب بذله من جانبها لـكى تفهمه .

وبدا له انه كان يضرب الجدار برأسه .

وظلت الدائرة مفرغة ، ولو لم تتعلق به هذا التعلق الشديد العنيف ما احبها .

ولا يمكنها ان تتغير ، ولم تكن بها حاجة الى التغير ، وعندما يثوب الى رشده كشأنه فى هذا الصباح كان يعترف بهذه الحقيقة الم يحاول منذ ساعة البحث عن قطرة خمر ؟ فلما لم يجدها شعر بعدم الرضا ذلك الشعور الذى قد يلازمه طوال يومه .

واستهان بما قد يخطر ببالها وذهب الى دولاب المطبخ ونسى أن ينظر الى الشواء وهو على النـار ، ثم تذكره وفتح الفرن ولم يكن اللحم قد احترق بل كان قد بلغ حد النضج الكامل ، وعـاتب نفسه على محاولاته تلك بأن أكره نفسـه على تذوق اللحم الساخن الى حد الالتهاب وقطرات الدهن تتساقط على يديه محرقة .

وخرج من المطبخ عندما سمع وقع خطواتها على السلم وعاد مسرعا الى مكتبه وأمسك بأول قطعة من عمله وتساءل : هل يجب أن يشعر بالضيق منها أو من نفسه ؟ واذا لم يكن قد أحدث أى ضرر فلماذا يشعر بالخجل ؟ .

واطمأن عندما سمع صوت المفتاح يدور فى قفل الباب وصوت جولى :

ـ هل انت هنا ؟ .

انها كلمات يقولها المرء دون احسـاس بمعناها ، أين يمكن اذن أن يكون ؟ وكان وجهها قد تجمد من البرد ، وبدا له أنها فى كل مرة تعود فيها من الصلاة تحمل معها نوعا من شذا العطر .

ــ هل لاحظت الشواء ؟.

ــ نعم .

ــ لم يكن يجب أن أشغلك بمثل هذا الأمر على حين انك تعمل .

انها هي الأخرى مجرد كلمات دون احساس بمعناها . ماذا فى الأمر أن يطلع على اللحم بين لحظة وأخرى وهو فى البيت ؟ فلماذا الاعتذار الذى لا معنى له ؟ .

ــ سأبدل ثيابى ، أظننا لن نخرج اليوم حتى الليل .

ــ ليس فى نيتى الخروج .

ــ ولا أنا .

وكان يعرف عنها أنها لاتبقى بثياب الخروج فى أثناء وجودها فى الشقة ويعرف أنه من المفروض أن يخرج هو فى المساء لعمله وانها هى لن تخرج الا ان حدث أن تطلب عمله الغياب عن البيت بضعة أيام كما حدث فى الهافر . وحتى فى هذه الحالة كان الأمر يتوقف على الظروف . أما فى الهافر فقد كان مريضا وتطلب الأمر منها أن تعنى به وقد كانت التجربة سيئة .

وشعر بالضيق من حديثها هذا فانه سيعمل فى مكتبه حتى موعد الغداء ثم يقضى فترة بعد الظهر فى قراءة كتاب كان قداشتراه فى الليلة السابقة وستقضى هى وقتها فى اصلاح الثياب .

وكان هناك تناقض آخر فى شخصيته ولكن هل هو وحده الذى فيه مثل هذا التناقض ؟ كان من الناحية النظرية يحب أيام الآحاد وفى أغلب الأيام يبدأ يوم الأحد راضيا ثم ينتهى وهو يشعربفراغ . فالدنيا كلها تبدو ساكنة يوم الأحد الى حد أنه خيل اليه أنه يسمع صوت الماء فى أنابيبه بل دقات قلبه ، وهو جالس فى مقعده يقرأ وجولى أمامه .

ولكى يخرج من هذا الشعور بالفراغ قال لها فجأة دون انينظر اليها :

ــ هل تعرفين انى احبك ؟.

ـ وانا أيضا احبك . فيم تفكر الآن ؟ انا لا اشكو شيئا ولكنى احب ان أعرف كيف خطر لك هذا الخاطر .

ـ لا اعرف . كنت أفكر فينا .

ـ هل ترى أنك سعيد ؟ .

ـ أنا واثق من هذا .

لابد أنه سعيد اذ ليس هناك أى مبرر ليكون غير سعيد والاكان العالم مليئا بالتعسين وهو أمر عسير الفهم عليه .

« انى أريد لك أن تكون أسعد الرجال كما أنا أسعد النساء » .

ورأى أنها كانت تكذب فى هذا القول . فكيف تكون سعيدة على حين انهم يتعذبون فى داخل نفوسهم كما يحدث له .

وقالت جولى دون أن ترفع عينيها عن عملها :

ـ لا ادرى ماذا كان يصبح عليه مصيرنا لو لم أقابلك ؟ .

ـ كنت ستقابلين رجلا آخر .

ـ أنا واثقة من أن هذا ماكان ليحدث ! .

وكان هو الآخر واثقا من هذا .

وقال لها :

اريد أن أقول لك شيئا ياجولى فهل أنت منصتة ؟ .

ـ نعم .

ـ انظرى الى .

وذلك حتى ترى هى أنه جاد فى قوله .

ـ طلبت منى ذلك اليوم الا أتركك ، وقد وعدتك بهذا لأن الوعد سهل . ولكن الأمر يتطلب منك أن تبذلى قصارى جهدك مهما كانت الظروف فى أن توقفينى عن الشراب ! .

ـ كيف تنتظر منى أن أوقفك اذا كنت انت تريد الشراب ؟ .

ـ انت تعرفين جيدا انى لا أريد الشراب ومن الصعب أن أوضح لك هذا الأمر ، والمهم عندى هو الا أبدا ثانية .

ـ لقد حاولت ذات مرة .

ولم يكن يحب أن ترد عليه على هـذا النحو فتذكره بتلك الليلة فى الهافر .

ـ لاباس . افعلي ماقلته لك ، اوقفيني عن الشراب .
ـ هل أنت واثق من أنك لم تملني ؟.
ـ متيقن .
ـ هل تقسم ؟.
ولم يكن له أي حق في التردد فقال :
ـ أقسم .
وتحركت في مكانها فقال لها :
ـ لاتتحركي ، فمن الأفضل أن نتكلم بهدوء وكلانا في مكانه .. استمري في عملك ، ولا تنظري الى .
ـ لقد كنت أنت الذى ..
ـ نعم طلبت منك أن تنظرى الى ولكن هذا لم يعد ضروريا . وانت ترين أني هادىء الآن .. لم يعد جسدى يحتمل الخمر والخمر لاتسبب لى الكآبة فحسب ، بل هى تسبب لى ضيق الخلق فهل تظنين هذه طبيعتي ؟.
ـ كـلا .
ـ اذن فلا تظني أني اتعمد اهانتك . هـذا هو كل مافى الأمر . هل تحبين الذهاب معي الليلة الى بوبيني ؟.
ـ كيف عرفت ؟.
ـ عرفت وكفى .
ـ الا تمانع في هذا ؟.
ـ بشرط ألا تجلسي في الصف الأمامى فانى أشعر بالارتباك اذ أحس انك تراقبينني حيث يخطر لى أن جميع من يشـــاهدونني يفهمون سر العابي كما تفهمينه ، وأني أثير فهم روح الملل وانه يجب على أن أنتهي من عملى بسرعة حتى يذهبوا الى بيوتهم .
ـ سأجلس في آخر صف ، انى لم اجرؤ على ان اطلب منك ذلك .
ـ أما كنت تنوين طلبه ؟.
ـ ربما في آخر لحظة .

وكان لديه برهان ذلك اذ ظهرت من تحت طرف ثوبها دانتلا الملابس الداخلية التى ترتديها عادة تحت ثياب الخروج فلو لم تكن ترجو الخروج معه لاستبدلت بها غيرها .

وقالت :

ـ الا تسمح لى بأن اقبلك ؟.

ولم يكن فى استطاعته أن يرفض مثل هذا الطلب ، ولكنه شعر بالارتباك ، وكان الليل مقبلا بهدوء وخفض عينيه فوق كتابه ، وعادت جولى الى مقعدها وفتحت فمها ولم تقل الكلمات التى كانت تتلاعب فوق شفتيها وأخيرا تمتمت قائلة :

ـ معذرة ، سأدعك تستمر فى قراءتك .

وبعد قليل قالت له :

ـ أنا سعيدة لأنك كنت أول من فكر فى ذلك .

ـ فى ماذا ؟.

ـ فى اصطحابى معك ، لأن هذه هى المرة الأولى منـــذ وقت طويل جدا . هل تذكر كيف انى قبل زواجنا لم يكن ليفوتنى حفل واحد وكان ذلك يثير ماما ، مسكينة ماما !.

الجزء الثانى

الفصل الأول

لابد ان الساعة الآن الثانية أو الثالثة صباحا ؟ فهنا فى هــذا المقهى بحى مونتمارتر ينتهى طوافه فى هذه الساعة .

وجاءت بائعة الأزهار ذات الأصابع المتورمة من البرد وطلبت منه فى رجاء أن يأمر لها بكأس من الخمر وكانت هذه المرأة وحدها هى التى تحظى بعطف انطوان ورقته كما انها لم تكن تحترم سواه واشار انطوان للبارمان فأعد الكأس للمرأة .

واخذ انطوان يتلفت حواليه وهو يرجو ان يرى ذلك الرجل ذا الميدالية والشارب لعله يراه فى هذا المكان الذى رآه فيه منذ سنة وكانت الحقيبتان فى مكانهما عند قدميه .

ولكن لم يظهر سوى ذلك الممثل الهزلى وهو يدخلّ المقهى على حذر يتلفت حوله فاذا لم ير أحدا يعرفه غادر المقهى على الفور لأنه لم يكن يملك ثمن الشراب . ومضى الى مقهى آخر قد يجد فيه من يدفع عنه ثمن الشراب !.

فهل عرف انطوان ؟ وعلى كل حال فانه ابتسم له ابتسامته الأوتوماتيكية كما لو كان يمثل على المسرح ، وجاء نحوه ولمس كتفه بيده كما فعل تماما فى اللقاء الأول بينهما .

ـ انى سعيد جدا برؤيتك بالتأكيد ياصاحبى ،فانك لا تستطيع أن تتصور ماذا حدث لى . فان الأمر غريب لدرجة أنه يبدو مضحكا تصور أنى فى هذه اللحظة كان يجب أن أكون فى القطار فى طريقى الى ...

وحدق النظر فى انطوان وخبا بريق عينيه يأسا ثم لمعت عيناه من جديد ، ولكنه لمعان الشمعة قبيل انطفائها ، وذبلت ابتسامته واستبد به القلق وزاد انحناء على كتف صاحبه وقرر أن يضحك

ـ لقد جازت عليكَ هذه اللعبة من قبلّ . أليس كذلك ؟ ولكنها نكته لطيفة . لا تستطيع أن تنكر ذلك ، وعندما جئت نحوك هذه المرة قلت لنفسى : . انى أعرف هذا الفتى .. هل يمكن أن تذكرلى اسمك مرة أخرى ؟ .

وتمتم انطوان فى اسف « اسمى انطوان » .

ـ أرأيت ؟ لقد كنت أعرفه ولو نظرتَ الى الحقيبتين لعرفتَ أين التقينا من قبلّ ؟ . متى كان آخر لقاء لنا ؟ .

ـ فى نيفير .

ـ هذا صحيح ، هلّ جازَتَ عليكَ هذه اللعبة من قبلّ ؟ .

ـ نعم .

ـ الا تشترى لى كأسا على كلّ حال ؟.

ـ بلى ! .

ـ ماذا تشربَ ؟ .

ـ روم .

ـ حسنا اطلب لى انا الآخر كاسا من الروم .

وطلب له الكأس .
واخذا يتحدثان .
واخيرا قال راجو بيير بعد أن شرب كأسه .
ـ هل تسير امورك على ما يرام .
ولم يرد انطوان على هذا السؤال .
ثم سأل داجوبير :
ـ الا تزال لك زوجة ؟ .
ـ بلى .
ـ واولاد .
ـ نعم .
ـ لا أدرى ما رايك فى ، ولكن ان كان لك قلب طلبت لى كأسا اخرى .
ونادى أنطوان الخادم وظهر الرضا على وجه داجوبير .
وجيء بالكأس أمامه فقال : .
ـ أما أنا فلا زوجة ولا ولد ولا أثاث بل لابيت آوى اليه . لقد تركتنى وأخذت كل شيء معها . ايه ! لابد أن أحدا ما قد غرر بها وأخذها منى ! . وفى ذات يوم عدت الى البيت وقرعت الباب ولم يرد أحد وعاودت القرع بعنف حتى انزعج الجيران وخرجوايقولون لى : انه ليس فى المسكن أحد ولا أثاث .
واستمر الحديث يتخلله الشراب وقال داجوبير : انه لن يطلب منه نقودا هذه المرة ، ودارت الرءوس ، وعندما أفاق انطوان بعض الشيء نظر عند قدميه فوجد احدى الحقيبتين قد سرقت ونظر بجواره فوجد داجوبير قد ذهب ولم يحزن بل ضحك ضحكة باردة .
وطلب كأسا ، ولكن خادم المقهى نصحه بالذهاب لينام .
وجاء له خادم المقهى بتاكسى .
وسأله السائق :
ـ الى أين ؟ .
ـ أتعرف الكنيسة الروسية فى شارع دارو ؟ الى هناك .

واحس وهو ينطق اسم الكنيسة الروسية انه يقول نكتة فضحك ثانية وهو داخل التاكسى . هل سيأخذه السائق الى قس روسى ؟ وبدا له أن كل واحد وكل شىء يريد ان يقتله فالبرد قاتل واصابعه فقدت احساسها فهل يصعد السلم على اربع ؟.

وعجز عن أن يدير المفتاح فى القفل . هل غيرت جولى القفل لتمنعه من دخول مسكنه ؟ وربما تصورت أن البيت بيتها لا بيتهما فقد كانت تقيم فى هذه الشقة مع امها من قبل وهى ترى أن الشقة شقة ترافو !.

وانحنى ورفع قبعته باحتفال مهيب لجميع افراد اسرة ترافو الأموات منهم والأحياء ! وربما ذهبت هى الأخرى وهربت مثلما فعلت زوجة داجوبير وأخذت الأثاث معها !.

وانفتح الباب ببطء بدون مفتاح ، لأن المفتاح كان بيده وكان على وشك أن ينفجر ضاحكا لأن هذا كان أشد عجبا له .

ــ صه . . . حاول الا تثير ضوضاء . .

ورفع حاجبيه وحاول أن يفهم ونظر الى السلم ليرى انه لم يخطىء الشقة . وكانت التى وقفت بالباب الشبيه بالمفتوح غريبة عليه وقالت له بلهجة خالية من الود او التهذيب :

ــ اذا كنت زوجها فادخل ودعها لشأنها . .

ــ ماذا حدث ؟.

ــ المسكينة مريضة والطبيب يحرم عليك دخول غرفتها .

ــ الدكتور بورجوا ؟.

ــ لا ترفع صوتك هكذا ، نعم الدكتور بورجوا وقد استدعانى

ــ ماذا حدث لها ؟.

ــ وبما لا تسبب لها كثيرا من المشاغل . اعطنى حقيبتك حتى لا تثير ضوضاء فى الشقة .

وقد ذهل لهذا الموقف ، ولم تتح له المراة العجوز فرصة للاحتجاج ولمح من خلال باب غرفة النوم وكان مفتوحا قليلا ــ لمح وجه جولى وشعرها على الوسادة ، وبدت له نائمة ولم يستطع تبين ملامحها جيدا لأن المصابيح كلها كانت مطفأة ماعدا مصباح الليل

الضئيل ، وكانت هناك رائحة غريبة فى كل مكان بالشقة ، لاشك أنها رائحة الدواء .

ـ تعال من هنا . ولا تزحف بقدميك .

ودفعته الى مكتبه وهناك اريكة تعود أن يغفو فوقها احيانا.

ـ اجلس . واخلع حذاءك ، ولكنك لا تستطيع ذلك وانت بهذه الحالة سأخلعه لك بنفسى .

ولما فكت ربطة عنقه احتج عليها ثم سألها بعد لحظة :

ـ هل ماتت ؟ ردى على . اقسمى لى انها لم تمت .

ـ كلا لم تمت .

ـ هل هى على وشك الموت ؟.

ـ اذا تركتها وشأنها فانها لن تموت ، والآن نم ولا تتكلم أبدا.

وأرقدته وهو بثيابه وغطته بملاءة وأطفأت الأنوار واغلقت الباب وراءها .

وبكى فى الظلام ونام وضايقه الكابوس ، ومضى كأنما هو فى أنفاق تحت الأرض ، انفاق مظلمة لا تنتهى وهى واسعة مملوءة بالحيوانات المفترسة ، وسمع من ورائه داجوبير وهو يهمس له ولكنه لم يكن يقول شيئا وان كان قد قال شيئا فان انطوان لم يفهمه لابد أن داجوبير لم يقل شيئا ولكن لماذا لا يقول شيئا ؟.

واستيقظ شاحب اللون شحوبا شديدا ، وحملق فى يديه وكانتا ترتعدان . وسمع عدة أصوات فى الشقة بينها صوت رجل. كانوا يتكلمون بهدوء وبصوت منخفض وربما كان ذلك لكيلا يسمع هو ما يقال ! ثم فتح الباب وذهب الى غرفة النوم ودفع بابها الذى كان مفتوحا قليلا ودخل فرأى الدكتور بورجوا جالسا عند رأس الفراش بجوار جولى ، وتظاهر الطبيب بعدم ملاحظة وجودانطوان. وبدت عينا جولى أكثر اتساعا ونطقت ملامحها معبرة تعبيرا لا عهد له به . انه تعبير الراحة والخوف معا ، ثم هدأت فجأة وابتسمت فى ضعف وقالت فى همهمة :

ـ هل عدت ؟.

ووجهت حديثها للطبيب والمرأة العجوز قائلة :

ــ هل رأيتما ؟ لقد عاد .

لماذا كانت تتكلم بصوت كانه آت من مكان سحيق ؟.

ــ الآن وقد عاد فسوف تتحسن حالى يا دكتور ، لم يكن لى أن أزعجك . لقد كنت حمقاء ، اذ عندما أكون وحدى ترد على خاطرى آراء غريبة !.

ونظرت المرأة العجوز اليه نظرة صارمة حجرية ونسى انه كان مرتديا جوربه وبدون ربطة عنق وان شعره منفوش .

ــ انا آسفة يا انطوان لا تنزعج ، فى الساعة الثالثة من صباح اليوم شعرت بضعف شديد وخشيت أن أموت ، فاتصلت تليفونيا بالدكتور بورجوا ، لن يحدث شىء مكدر يا انطوان ، بل لقد تحسنت صحتى فعلا ، وسأستطيع النهوض حالا وأعتنى بك . اليس كذلك يا دكتور ؟.

وهز الطبيب راسه .

ــ لماذا ؟.

ــ لأنك فى حاجة شديدة الى الراحة التامة فى الفراش مدة أربعة أيام أو ثلاثة على الأقل ، وبعد ذلك نرى .

ــ ولكن اذا كانت النوبة قد انتهت ؟.

ووقف وربت بأصابعه على كتفها قائلا :

ــ التزمى الهدوء حتى أصرح لك بالنهوض من الفراش ؟ وستعنى بك مدام أرنو كما ستعنى بشقتك . أليس كذلك يا مدام أرنو ؟.

ــ سأفعل ذلك بالتأكيد من أجل السيدة المسكينة .

ونظر الطبيب الى انطوان كما لو لم يكن قد قابله من قبل ، واشار اليه أن أخرج من الغرفة ، ودخل معه غرفة المكتب حيث كان حذاؤه ملقى على الأرض بحسب ما اتفق !.

ــ أرنى معصمك .

ولم يحاول انطوان الاحتجاج وامسك الطبيب ساعته واخذ يعد النبض بشفتيه فى همس .

ـ سأمر وأنا فى طريقى بالصيدلية ، وسيرسلون لك بعض الاقراص لزوجتك وبعض المساحيق لك،وعليك أن تذيب المساحيق فى الماء ، وأنصحك بالكف عن شرب القهوة ، وخير لك أن تنام طوال النهار !.

ـ وزوجتى ؟.

ـ دعها لشأنها . لقد كادت حياتها تنتهى فى الليلة الماضية وكلما قلت رؤيتك لها كان هذا أفضل ، وستقوم مدام أرنو بتمريضها .

ووضع قبعته على راسه ومضى نحو الباب .

ـ الا تزال حالتها خطرة يا دكتور ؟.

ـ ستظل طوال حياتها فى خطر .

ـ بسببى ؟ .

وترك الطبيب الشقة بدون أن يرد عليه وضغط على زرالمصعد، وعندما حاول انطوان دخول غرفة النوم اصطدم بمدام ارنو التى دفعته الى الخارج !.

ـ انتظر لحظة ، سأسمح لك برؤيتها دقيقة واحدة بشرط أن تحتفظ بالهدوء والا تقول شيئا من شأنه أن يثيرها ، سيبهجها أن تراك بدون أن تسمع منك كلاما ، هل اتفقنا ؟.

وفهم أنه كان عليه أن يقبل أو ان يرفض وانه لم يعد المسيطر على بيته .

ماذا يمكن أن يقول لجولى ؟ واقترب من الفراش فى خجل وأمسك اليد التى بسطتها نحوه فى ضعف . وظل خافضا رأسه كالتائب من ذنب جناه ! ولابد أن منظره كان وقتئذ مثيرا للشفقة لأن الدموع انهمرت من عينى زوجته واختنقت عباراته وخشى أن ينخرط فى البكاء وتلعثم بسرعة !.

ـ سامحينى !.

وهمست له قائلة :

ـ قبلنى .

وانحنى فوقها ليلمس جبينها بشفتيه ، وسببت له هذه الانحناءة دوارا واضطر الى بذل بعض الجهد حتى استطاع أن يعدل قامته ، وكانت تفوح من جولي ومن كل ما يحيط بها رائحة منفرة ، ولابد أن يكون الطبيب قد اعطاها عقارا لتهدئة الأعصاب ولهذا كانت شبه ذاهلة بعيدة جدا .

وأشارت مدام ارنو اليه بأن يتبعها .

— ليس هناك داع لازعاجها بدخول الحمام . وبعد ان تتناول اقراصها سوف تنام ، وتستطيع أنت الاغتسال فى المطبخ وحاول أن تغسل فمك وأسنانك ان رائحة الخمر تفوح من فمك بصورة بشعة !.

ولم يحتج على قولها اذ كان يشعر أنه مستحق هذا الزجر والتعنيف ، وتقبل هذه الاهانة على انها قصاص عادل ، بل لقد تمنى أن لو كان القصاص اشد عنفا !.

— ماذا قالت فى الليلة الماضية ؟.

— هل تظن انها كانت فى حالة تسمح لها بالتحدث فى متاعبها ؟.

وشعر بضعف مركزه وكأنه طفل فقال : .. لا أعرف مكان فرشاة الاسنان .

وأدخلته الى دولاب المطبخ وهناك كانت فرشاة الأسنان والموسى وفرشاة الحلاقة والصابون والمنشفة ، وكان الروب على مقعد وتحت المقعد شبشبه ، ولم يحاول ان يحلق ذقنه لأنه كان عاجزا عن مثل هذا العمل اذ كان يصاب فى صباح كل يوم كالليلة السابقة برعشة فى يديه ، وكان يحاول اخفاء يديه عن جولى بوضعهما فى جيبه ، وقد حدث ذات مرة أن كان لديه عمل فى المساء ، فظل طول نهاره فى خوف مستمر من احتمال أن تخونه يداه فى اثناء قيامه ببعض الألعاب واضطر الى تغيير برنامجه .

وبعد أن ارتدى الروب سمع صوت جرس الباب وشاهد مدام أرنو وهى تذهب الى الباب وكأن الشقة شقتها وتخرج من جيبها النقود لتقدمها لعامل الصيدلية .

وقالت له :

ـ خذ علاجك انت أولا حتى ننتهى منك ..
وصبت المسحوق فى الماء وقلبته وتصاعدت منه بعض الغازات
ـ استند على ، واذهب الى فراشك ، من التاجر الذى يبيع لكم اللحم ؟ هل هو تروفو ؟.
وأومأ برأسه بالايجاب .
ـ ارجو ان تدفع له حسابه حتى يلبى الطلبات ، انتظر حتى أخرج التليفون .
واخرجت التليفون الى الصالة ووضعته على مقعد .
ورأى الحقيبة على الأرض وعندئذفقط تذكرأن حقيبتهالأخرى قد سرقت وشعر بالضيق أكثر لفقد الحقيبة .

كان هذا أول حدث من نوعه يقع له ، اذ لم يسبق له ان نسى أو فقد شيئا له صلة بعمله ؛ وخطر له احتمال ان يكون داجوبير هو الذى سرقها ولو حدث هذا منذ بضعة أشهر لكان فيه خطرشديد وهو كشف أسراره أما الآن فان الأمر لا يهمه .

وفكر فى الدواء الذى وصفه له الدكتور بورجوا الذى لم يشأ أن يقول له شيئا عنه .
وعندما استيقظ وجد مكتبه مظلما ، ورأى من النافذة الفتيات القبيحات الوجوه اللاتى يعملن عند حائكة الثياب.

وخرج من المكتب بدون صوت ، وسمع صـوت مدام أرنو فى المطبخ تغسل شيئا فى الحوض .
ـ كيف حالها ؟.
ـ لقد أكلت بعض الطعام وهى الآن نائمة .
ـ ألم تسأل عنى ؟.
ـ انه يسرك أن يكون لديها شيء يشـغلها ، أليس كذلك ؟ كل الرجال فى هذا سواء .
ـ ماذا قلت لها ؟.

ـ ان صوت شخيرك يبلغ عنان السماء وان رائحة الخمر تصل الي الشارع ! سأعد لك بعض الطعام بعد قليل .
ولم يدر ماذا يفعل ؟ ثم سألها :

ـ متى أستطيع الكلام معها ؟».

ـ هل لديك كلام هام تريد أن تقوله لها ؟ والآن خذ حقيبتك هذه واذهب بعيدا عن المطبخ فهو لا يتسع لى ولك .

وعجب أنطوان من هذه المرأة ومن شدة وثوقها بنفسها وكأنما هى فى بيتها ! .

وتذكر أنه كان عليه أن يؤدى برنامجا فى مدرسة بعد ظهر اليوم التالى والحقيبة المفقودة تحتوى على أهم أدوات ذلك البرنامج. ولكنه يستطيع تدبير أمره على كل حال ، ولكن الحقيبة نفسها ! لقد كانت جزءا من حياته وقد تعودها وألف وجودها معه . لقد كان هو نفسه السبب فى ضياعها !.

ولو برئت جولى فى صباح اليوم التالى لاستطاع أن يذهب معها الى سوجون العجوز فى شارع سان مارتن الذى يمر الناس بمتجره فلا يخطر ببالهم أنهم يمرون بأعجب مكان فى العالم .

ففى هذا المتجر شعور مستعارة ولحى مستعارة وثياب مسرحية للأوبرات العالمية والمسرحيات التاريخية وأنوف صناعية وأسنان صناعية وكئوس يستحيل الشرب منها وكثير من أدوات التسلية ».

ومع ذلك فهذا المتجر يرتاده السحرة والحواة والأجانب لا لمجرد الرغبة فى الحصول على هذه الأشياء ، بل لمجرد الشراء من سوجون العجوز الذى كان بلحيته البيضاء كأنه ساحر قديم يبدى النصح والارشاد بحديث عذب خلاب !.

وكان له ابن يشبهه كل المشابهة غير أن لحيته لا تزال سمراء وهو ينتظر دوره لكى يصبح ساحرا أو كاهنا للسحرة ، فهل يستطيع انطوان أن يعترف لهما بأن حقيبته سرقت ؟ هذا غير معقول ! لأن سوجون العجوز سينظر الى يديه ويجدهما مرتعشتين إذ لابد من أن تستمر هذه الرعشة يومين آخرين .

لم تكن هناك جريدة ولا أى شىء يقرؤه فى الشقة ، وهو فى بيته يعامل على انه شخصية معيبة ، وفى غد سيضطر الى مواجهة سوجون العجوز . والصداع يشتد عليه ، وبدا له الضوء الآتى من

مصابيح الشارع باردا قاطعا كالسكين ، ومع ذلك فهناك المئات أمام حوانيت هدايا أعياد الميلاد ينتظرون دورهم لشراء هداياهم .

وأحس بأنه أشد حاجة الى جولى من حاجتها هى اليه . انها تعرف ذلك ولهذا فهى لا تريد أن تموت وان لم تعترف بذلك ،كانت تستشير الدكتور بورجوا بدون علمه وتقوم بعلاج نفسها دون أن تشغله بأمرها .

ومع ذلك ظل ساعات وهو مقتنع بأن جولى تآمرت معالدكتور بورجوا وبأنهما استدعيا مدام ارنو عن قصد .

ولو كانت جولى فى حاجة حقيقية الى ممرضة لتعنى بها دونه لثبت بذلك أنه وحش قاس جدير بالاحتقار لأنه يقتل زوجته على مهل قتلا بطيئا وانه سعيد لأن الناس لم يتهموه بضرب جولى كما اتهموا داجوبير بذلك .

وما كان الأمر ممكنا ان يستمر على هذا النحو الى الأبد ، ولن يستطيع المضى فى التيه فى ذلك النفق المظلم كما وقع له فىالحلم .

لن يستطيع الاستمرار فى هذا اللون من الحياة مع جولى وكلاهما مشدود الأعصاب ، انه سيعمل على توضيح حقيقة موقفه من جولى مرة كل اسبوع على الأقل ، وبذلك يمكن أن يتم التفاهم بينهما بدلا من هذه الاهانات والتجريح ، انه يؤلمها ويجرحها ثم يؤلم نفسه ويجرحها ، وكثيرا ما يدفعه هذا الى تمنى ضرب الجدار برأسه !.

فهل مرجع هذا أنه لا يشعر أنه فوق أرض ثابتة فيعمد الى العودة الى الشراب ؟ لم يعد فى حاجة الى فرقعة زناد ، ان الرغبة فى الشراب أصبحت تواتيه كلما خرج وحده ، ولو خرج كل يوم .

انه هو الذى يسبب الاجهاد له ولجولى فيقف كل منهما فى مواجهة الآخر لا يجدان شيئا يقولانه ، وغالبا ما يندفع كلاهما بين ذراعى الآخر ويبكيان ثم تقول جولى :

ـ سنحاول ثانية يا أنطوان ياحبيبى !.

ولم تكن تعرف أن هذه العبارة كانت تحكى الكثير ، لماذا تقول سنحاول ثانية ؟ لأنها كانت تعرف أن هذا مستحيل !.
اذن فهى لم تكن تؤمن به ، بل كانت ترثى لـــه ، ولم يكن فى حاجة الى رثاء بل الى فهم والى حب حقيقى ، كان فى حاجة الى أن تحبه كما هو لا كما تريده أن يكون،ولو أحبته كما يريد لها أن تحبه ما أصبحا فى هذا الشقاء ، لأنها كانت ستفهم أنه يعطيها أفضل ما يمكن أن يعطيه رجل !.
واخيرا سمع مدام أرنو تقول لجولى بصوت عال قليلا :

ـ تستطيعين رؤيته ولكنى لن أسمح له بالبقاء طويلا فأفضـــل شىء له أن ينام هو الآخر .
وكانت مدام ارنو قد رتبت شعر جولى ونشــــرت عليها ماء الكولونيا فجلست جولى فى فراشها متوردة الخدين وهى مرتدية قميص النوم الخاص بالمناسبات،وشعر أنطوان بأن جولى قد احمر وجهها خجلا عند دخوله وكأنما كان ذلك منها شـــعورا بالذنب ، وسألته بسرعة :
ـ هل تناولت عشاء طيبا ؟.
ـ نعم .
ـ ان مدام ارنو أفضل منى فى طهى الطعام . وهذا أمر شعرنى بالخجـل .
وظلت مدام ارنو بالباب حتى لاتدع لهما فرصة الانفراد كـل بالآخـر .
ـ أظنك ستنام على الأريكة ؟.
ـ نعم .
ـ لا أدرى نوع الدواء الذى يقدمه الطبيب لى ، ولكنى انام فهل تنام انت الآخر ؟.

ـ لقد نمت أغلب النهار نوما عميقا .
وابتسمت ونظرت الى مدام ارنو :
ـ هل تقبلنى ؟.
وفى هذه المرة اقتربت منه .
ـ الست غاضبا منى حقا ؟.

وكان هذا متعبا له ، ولما عاد الى مكتبه كانت يداه منقبضتين وكان جسده كله متوترا من فرط الاجهاد العصبى وشعر برغبته فى العراء ورفع عينيه الى السقف ككلب يعوى للنجوم .

الفصل الثانى

وفى اليوم التالى اقترب من حانوت سوجون العجوز وهو فى وجل من هذه المقابلة ، وعندما اصبح على قرب خطوتين من الحانوت كاد يتراجع ولكن حالما دخل من الباب فوجىء بشىء لم يكن له به عهد ، قابلته فتاة عصرية متزينة وسألته :

ـ أى خدمة ؟.

ـ هل مسيو سوجون موجود ؟.

ـ مسيو هيكتور سوجون .

ـ بل الأب سوجون .

وبينما كان يتبادل هذا الحديث لمح سوجون فى الغرفة الخلفية منحنيا فوق مكتب يرجع عهده الى تاريخ انشاء الحانوت منذ ثلاثة أجيال .

وقال وهو يمضى نحو الرجل :

ـ انه يعرفنى .

هل عرفه الرجل العجوز ؟ ان كان قد عرفه فان هذا لم يظهر فى طريقة تحيته .

ـ هل تذكرنى ؟.

وأومأ الرجل برأسه علامة الايجاب ولكن فى غير اهتمام.

ـ لقد سرق بعضهم حقيبتى الصغيرة وفيها معداتى وأنا فى حاجة الى بضعة أشياء !.

ـ سيعنى ابنى بك بعد عودته من مكتب البريد .

وجاء الابن وكان هو الآخر قد تغير ويحاول أن يبدو صغير السن وذهبت عن هذا الحانوت قدسيته ، وهذا أمر آلم انطوان ايلاما شديدا أكثر مما تألم من أى شىء آخر . ووضعوا له الأشياء التى اشتراها جانبا . وانتهت الصفقة فى أقل من ساعة وهو الذى

كان يقدر ان تستغرق طوال النهار . ووجد نفسه فى الشارع ،ولم يشعر بأية رغبة فى ارتياد أى بار ، وعاد الى بيته .

ولما دخل البيت وجد المرأتين تتحدثان بأصوات طبيعية ، وحالما علمتا بوجوده خيم الصمت على البيت ، وكاد انطوان يقسم على أن جولى كانت تخاف أن تبدو صـــحيحة الجسم ، وكانت مدام أرنو تصوب اليها نظرات ذات معنى .

ــ هل عثرت على ما كنت تبحث عنه ؟.

ــ كلا .

ــ ألا تبلغ البوليس ؟.

وأراد أن يفيد من عودته مبكرا فحزم ادواته وارتدى ســترتا المخملية .

ــ الا تقبلنى ؟.

ــ كنت على وشك ذلك .

ــ لقد كان الطبيب هنا .

ــ وماذا قال ؟.

ــ ان كل شيء يسير على نحو مرض، وسيسمح لى بمبـارحة الفراش فى غضون يومين ، وقد سأل عن صحتك .

ودخل مكتبه وأخذ يتدرب على اللعب بالأدوات الجـــديدة ، ومرت مدام ارنو أمام الباب المفتوح وبدا من ملامحها شيء من العجب من أن يلعب رجل مثله هذه الألعاب الصبيانية .

وكانت مدام ارنو تعيش من تمريض المرضى ويبدو من مظهرها وسلوكها أنها لا تهتم بالذين تمرضهم أى اهتمام شخصى لأنها تعيش على مآسى الآخرين وهى تنتقل من مأساة الى مأساة ومن عناء الى عناء وهى تدخل متاعب الناس بثقة هادئة ، بل بمتعة تعيش على مرضهم ودموعهم ومتاعبهم !.

وقالت له مدام أرنو :

ــ ان الطعام معد فى المطبخ .

وذهب ليأكل لأنه أمر بأن يأكل وأصرت مدام ارنو على ان تقوم على خدمته ، وكان هذا جزءا من عمل مدام أرنو الذى تقـــوم به بحماس شديد .

ــ اظنك ستعود عقب الانتهاء من الحفل مبكرا ؟.
ونظر اليها فى دهشة وهى مستمرة فى حديثها :

ــ انى لا اقول هذا بدافع الاهتمام بك شـــخصيا ، وأرجو أن تعرف ذلك عن يقين ، ولكنى مسئولة عن هذه المراة المســكينة ، واسمح لى أن اقول لك : انك اذا تأخرت استعنت بالبـوليس فى احضارك ولن يتأخر البوليس فى معاونتى مع رجل مثلك !.

ولم يرد ، وكانت راضية عن نفسها راضية عن رؤيتـــه وهو شاحب اللون فى ذلة واللقمة تقف فى حلقه ، ووجد أنطوان راحة وهو يقول لنفسه : ان هذا هو ما كان يفعله لجولى ، وعنـــدئذ ابتسم .

ــ هل انت فاهم ؟.

ــ نعم فاهم !.

ــ وليس هناك داع لأن تكلمها قبل خروجك ، وان تعدهاوعودا لاتفى بها ولم تعد هى تصدقها ، وتكرار مثل هذه الوعود اجهـاد لهـا .

وقالت له جولى فى حذر :
ــ الساعة الرابعة ؟.

ــ نعم الرابعة تماما ، والمواعيد فى المدارس غاية فى الدقة ، وكان من المفروض أن أكون هناك قبل نصف ســاعة على الأكثر ..

وقبل زوجته وحيا مدام ارنو وخرج .

خرج وأتم حديثه اليهما بينه وبين نفسه .

ــ لاتخافى ياجولى ولا تخافى يامدام ارنو انتما الواثقتان من كما لكما !. سأعود الى البيت فور انتهائى من عملى كأى رجل صالح آخر سأقوم فى الحياة الواقعية بدور تمثيلى وسأشترى لكما بعض الحلوى وستأكلانها وانتما تتبادلان النظرات والابتسامات !.

ولكن هل هكذا يجب أن يكون عليه ســلوكه حتى تصدقا انه

رجل ؟ انه يعرف انه ليس رجلا ، فهو يعرف الآن ماذا يساوي الرجل ، لاشيء مطلقا .

فالمهم هو أن يمثل الدور في الحياة كما هو ممثل على المسرح، وعندئذ تصبح جولي سعيدة ، أما بالنسبة اليه فأي فارق هناك مادام هو في داخله لن يتغير بل سيبقى على ماهو عليه ، أي لاشيء.

ـ فراغ ياعزيزتي جولي .

ـ سأقول لك اني أحبك وانت تحبينني وكل شي انما هو للأفضل ، وعندما تتحسن صحتك سنذهب الى السينما ونتناول العشاء في مطعم ..

وفي تلك الليلة عاد مبكرا الى بيته .

ونادته جولي في مرح :

ـ هل هذا انت ياانطوان ؟.

ونظرت اليه نظرة القلقة المتلهفة . واستطاع أن يغيب عن بصرها عشر دقائق ليتيح لنفسه خمس جرعات من الشراب .

وكان في مظهره مابعث الطمأنينة الى نفسها . ولم يهمها ماتضمه جوانحه مادام هو غير مخمور . ولاحظت عليه احضاره الحلوى .

ـ ماكان يجب أن تشتري هذه .

ورفعت صوتها قائلة :

ـ مدام ارنو تعالي وانظري ، ماذا جاء به زوجي .

وحاول أن يضبط نفسه .

الفصل الثالث

انقضت ثلاثة عشر يوما لايقرب الخمر . وسارت حياته طوال هذه الأيام على نحو صامت بلا أسى وبلا بهجة وكأنه راهب في دير، ولم تكن به اية رغبة في الشراب وتعمد أن يمر على أبواب البارات المفتوحة وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة !.

واقتنع بأن جولي مريضة عندما صرح الطبيب لها بالنهوض بشرط الابقاء على مدام ارنو بضعة أيام اخرى، أما قبل ذلك فقد كان متوهما انهم يبالغون في وصف حالة جولي لاثارة عطفه أو تخويفه .

وفى اول يوم جلست فيه فى غرفة المائدة وتنقلت فى انحاء الشقة ـ سارت الأمور فى البيت على أحسن حال ، بل لقد زارته فى غرفة مكتبه بلباقة التى لاتريد ازعاجه أو ارباكه أو حرمانه من شيء من الحرية التى استعادها على حين كانت هى فى فراشها .

واصبح كلاهما يعنى بشعور الآخر ، وشاب علاقاتهما الخجل الذى كان له سحره على حين كانت مدام أرنو تقوم بدور الحارسة.

وفى اليوم التالى ذهبت مدام أرنو لشراء بعض الحاجات من السوق ، وكانت جولى فى الحمام تتزين ،وكان أنطوان جالسا فى مقعده يقرأ جريدته فى غرفة المائدة ويدخن سيجارته ، وكانت السماء ملبدة بالغيوم .

وعلى حين فجأة أثار انتباهه هذا السكون المطبق وخيل اليه أنه قد انقضى دهر منذ دخول زوجته الحمام ، ومع ذلك انتظر خمس دقائق أخرى على سبيل الحيطة .

ومضى نحو الحمام وفتح الباب عليها ، وكانت واقفة وليس عليها سوى ملابسها الداخلية .

وقال لها :

ـ ماذا بك ؟.

ثم لاحظ شدة شحوب لونها !.

ـ سأستدعى الطبيب .

ولم يكن ذلك تهديدا ، بل كان خائفا عليها حقا ، واشارت اليه بيدها ألا يستخدم التليفون ، ثم حاول أن يقيس نبضها ولكنها أبعدته عنها برقة وعذوبة كما لو كانت تعتذر عما سببته له من أزعاج .

وشعر بالأسى وهو فى وقفته تلك لايملك مساعدتها أو حتى الابتعاد عنها ، وليس أمامه الا الانتظار حتى تمر الأزمة بسلام ؛ فتنهد تنهد الارتياح وهو تنهد قد ألفته انطوان .

ـ لاتنزعج باانطوان فقد حذرنى الطبيب .

وتذكرت ففطت صدرها واستعادت حياءها كما كان عهده بها دائما .

ـ يستغرق تأثير الحبوب بعض الوقت ، وعندما أشعر بقرب الأزمة آخذ حبة ، وليس ذلك خطرا ، قال الطبيب لى ذلك وقال : انى سأشعر فى كل مرة كأنى أقارب الوفاة !. أنت شاحب اللون ياحبيبى أنطوان !.

ولم يشأ أن يحدث مدام أرنو فيما حدث ، وانتهز فرصة راحة جولى بعد الغداء وذهب الى عيادة الدكتور بورجوا ، ولم يجده ، وكان أنطوان متعاقدا على العمل فى حفل يبدأ فى الساعة الثامنة لحساب جمعية خيرية محلية .

وفى المساء زار الطبيب مرة أخرى وقال له : ـ لقد جئت بشأن زوجتى .

ـ أعتقد أنك بدأت تقلق بشأنها .

ـ هل حالتها خطرة يادكتور ؟.

ـ عندها شبه تصلب فى الشرايين ومع التصلب يصيبها تقلص مما يجعل حركات القلب عسيرة ومؤلمة ، وكانت الأزمة التى أصابتها فى الليلة الماضية خطيرة ،وقد تعيش زوجتك شهورا أو أعواما دون أن تعود اليها هذه الأزمة .

ثم قص أنطوان عليه ماحدث ذلك اليوم .

ـ ليست هذه أزمة وسيتكرر لها حدوث مثل ما حدث صباح اليوم ولابد ان تتعود الحياة مع هذه الأعراض التى تعرض لها ،وقد وصفت لها بعض الحبوب التى تقضى على الألم فى بضع دقائق . وعندما تخرج من البيت يجب أن يكون معها بعض هذه الحبوب .

ـ هل من المحتمل أن تعيش طويلا ؟.

ـ لايستطيع أى طبيب أن يرد على هذا السؤال ، وكل ما أستطيع قوله لك : هو أن أى انفعال خطر عليها وهى فى حاجة الى حياة هادئة منتظمة وكثير من الراحة وعدم الثورة ، وقد نصحتها باستخدام امرأة للتنظيف بعد ذهاب مدام أرنو .

ـ لم تذكر ذلك لى .

ـ يجب الا تقوم بأى عمل مجهد ومن واجبك انت ضمان هدوئها .

وفى ذلك المساء لم تجرؤ جولى على أن تسأله عن سبب المبالغة فى رقته نحوها أكثر مما تعودته منه ، ولكنه كان يعرف أنها لاحظت الفارق ، ومع ذلك فقد كان حديثه خاليا من الحرارة ، وكان من الصعب تفسير ذلك . كان يحبها ويرثى لها وكان يقول لنفسه : انه من المحزن أن يموت المرء فى مثل سنها ، وعندئذ أحاطهابالرعاية والانتباه والاهتمام بشعورها ومع ذلك ظل خاليامن الدافع الصادق .

وساورها الشك عندما عرض لموضوع استخدام امرأة لتنظيف الشقة .

ـ هل أقنعتك مدام أرنو بذلك ؟ انها شديدة الاشتغال بى ولا تريد أن تقتنع بأنى قضيت طوال حياتى أعمل ، وأنى قد أموت اذا كففت عن العمل واضطررت للجلوس بلا عمل !.

ورد عليها كما يرد المرء على المرضى واختلق شتى المعاذير والأسباب ، وفى اليوم التالى عرض للموضوع نفسه فى حضورمدام أرنو ، فوعدته بالبحث عن امرأة للقيام بهذا العمل .

وكان اسم هذه المرأة أوجينى وهى أرملة رجل مطافىء تعيش بمعاش ضئيل ، وكان ابنها الذى لايصلح لشىء يأخذ منها كل مال يصل الى يدها أو يبيع بعض أثاث البيت القديم ان لم يجد لدىأمه مالا .

وكانت أوجينى تقول عن ابنها فى استسلام من لاتملك للأمر حيلة :

ـ انه سيبيع قميصى يوما ما ، فقد باع ساعة أبيه لأحدأصدقائه ولكن والدى المشترى ردا الساعة الى ، غير أن هذا لم يحل دون أن يبيعها مرة أخرى بعد عامين !

ولم تكن أوجينى غاضبة ولا كانت تعتبر نفسها منكودة الحظ .

وشعرت جولى بالراحة وبدأت الخروج مع أنطوان ، وكانت النوبات تأتيها أحيانا وهى جالسة الى المائدة . فتقوم الى المطبخ كما لو كانت تريد أن تأتى بشىء ما . فاذا لم تعد بسرعة انتظر قليلا قبل أن يلحق بها حيث يجدها فى تلك الوقفة المعتادة وتشير اليه راجية أن يستأنف تناول الطعام !.

أحس أنطوان أنه يعيش على أطراف أصابعه وفي وسط كل هذه الاضطرابات كانت تسأله :
ـ أرجو ألا تكون قد مللتني ياأنطوان .
وكان هذا السؤال يقطع قلبه كما لو كان سكينا !.

وكانت تحاول أن تشغله بتسلية ما وكانت مدام أرنو تزورهما يوميا تقريبا وتنظر اليه متعجبة من أنه لم يعد يشرب ! وكانأنطوان يلاحظ كل شيء وكل حركة تصدر من مدام أرنو أو من جولى أو تتبادلها المرأتان الى درجة أنه أصبح مستطيعا أن يتبع خط تفكير جولى .

انقضت ثلاثة عشر يوما برح فيها الشقة خمس مرات بدون زوجته الى عمله ، وفي كل مرة عاد مبكرا وانحنى فوقها وقبلها حتى تطمئن الى أنه لم يشرب ، وكان اقلاعه عن الخمر سهلا الى درجة أثارت دهشته هو نفسه ، وكل ماكان يتطلبه هو ألا يوجه الىنفسه أى أسئلة ، حقا تخيل أن الحياة أصبحت مملة كئيبة بعض الشيء ولكنها كانت مقبولة .

واعد لها هدية عيد الميلاد : قطعة أثرية ربما كانت علبة نشوق لتضع فيها جولى حبوبها التى كانت تأخذها معها فى خروجها !.

وفى ليلة عيد الميلاد خرجا لحضور صلاة منتصف الليل ورآها انطوان تصلى بشفتيهادون أن يخرج منها صوت ،وتأثر بهذه الصورة فأخذ يصلى هو الآخر .

وحسد جولى على تساميها ولم تكن هـذه الحالة حالها فى البيت مما دله على أن دوره فى حياتها أقـل مما تزعم هى ومما يعتقد هو .

لماذا لم تكن فى هذه الراحة النفسية فى أثناء وجوده ؟ لم يكن مبعث هذه الراحة مجرد الخلاص من التوتر العصبى ، بلكانت فى ملامحها سعادة يحيط بها التسامى وفى عينيها نشوة .

كان يذكرها فى توترها ولكن فى ظروف مختلفة وذلك عنـدما كانت تمسك به متوسلة اليه الا يتركها . أما هنا فقد كان الشعور المسيطر عليها عكس الخوف ، وقد أزعجه هذا الشعور لدرجة أنه

عند خروجهما لم يجد شيئا يقوله لها ، وشعر بالارتباك وهو يمسك ذراعها كما لو لم يكن واثقا من أنها زوجته .

وكادا يصطدمان خارج الكنيسة بمخمور فاقتربت جولى من انطوان .

وقال لها بلهجة ادهشته هو نفسه مافى نبراتها من صدق :

ـ احبك ..

وردت عليه هامسة كأنما تفضى اليه بسر :

ـ وأنا أحبك يا أنطوان أكثر مما تظن !.

ودخلا مطعما وترك معطفه فى غرفة المعاطف ، أما جولى فلم تكن مستطيعة التخلى عن معطفها لشعورها الدائم بالبرد .

وكان أنطوان قد حجز لهما مائدة فى هذا المطعم من قبل .وكان مكتوبا على كأس الشراب اسم كل منهما .

وبينما كانا يأكلان تذكر الهدية فى جيب المعطف وكان فى نيته أن يقدمها لها بهذه المناسبة ، مناسبة عيد الميلاد ! لقد كان أول عيد ميلاد يحتفلان به فى مطعم ، وخطر له أن يذهب لاحضار العلبة ، ولكنه آثر ان يؤجل هذا الى مابعد تناول الحلوى .

ولم يدرك أن الشراب كان ضمن قائمة الحساب التى دفعها مقدما فى أثناء حجز المائدة ، وجاء خادم المطعم وفتح زجاجة الشراب ونظر انطوان الى جولى نظرة مطمئنة ، وبعد أن ذهب الخادم قالت جولى :

ـ اشرب كأسا فلا بأس فى ذلك .

ـ كلا ليس فى نيتى أن ألمسها من أجلك .

ثم قالت جولى :

ـ ان المطعم مزدحم جدا بالناس .

ـ نعم . وسأخلع عنك معطفك .

ـ لا أدرى أين أضعه .

ـ أعطينى اياه ياجولى وسأحمله الى غرفة المعاطف .

وخطر بباله أنها نظرت اليه فى قلق ، وحاول أن تبدو ملامحه

خالية من أى تعبير الا التعبير الذى يصور زوجا مهتما بزوجته .

وساعد جولى فى خلع معطفها وذهب به الى غرفة المعاطف وسلمه للفتاة المكلفة بحراسة المعاطف ، وقدم لها نمرة نحاسية تحمل رقم ١٧ وكانت هذه النمرة خاصة بمعطفه ، وكان يريد أن يأخذ المعطف لحظة واحدة ليأخذ من جيبه الهدية ، ثم يرده من ثم لولا أن الفتاة قالت له :

ـ هل ستخرج الآن مبكرا من المطعم ؟.

ورأى نفسه أوتوماتيكيا يلبس معطفه ويمضى مسرعا لا يسمع الفتاة وهى تقول :

ـ والقبعة ؟.

وخرج من المطعم كمن يهرب من كارثة وأسرع فى الطريق وهو ينظر الى كل حانة تقابله معتقدا أنه سيستطيع العودة بسرعة من أية نقطة يصل اليها ، وكانت الحانات مغلقة ، وما كان منها مفتوحا كانت به بوادر شجار حتى وجد حانة منزوية فى شارع جانبى ضيق فدخلها ، ورأى بعض الناس جالسين وظهورهم الى الجدار على حين أن هناك آخرين يستندون بمرافقهم الى منصة البار ، ولم تكن الاضاءة تيسر للمرء أن يعرف : هل الوقت ليل أو نهار ؟.

وطلب كأسا كبيرة .

وكان فى عجلة من أمره فأفرغها فى جوفه مرة واحدة ومسح فمه بمنديله ، وليس فى نيته أن يطلب كأسا أخرى ، ولكن عينيه اتجهتا بالرغم منه الى اعناق الزجاجات وهى تطل من حوض الزنك!

وشهد وجها واحدا يعرفه هو وجه بائعة الزهور العجوز وكانت جالسة الى منضدة وأمامها زجاجة ضخمة من النبيذ الأحمر وأمامها رجل يصغرها سنا .

ونظرت المرأة اليه بعينين مثقلتين بالنعاس وفيهما شىء من الدهشة وهى تستذكر ماضيا بعيدا جدا ، ثم هزت كتفيها وعادت الى غيبوبتها .

ولم يرفع البارمان عينيه عن انطوان وهو يكاد يتلقف منه الكلام

قبل ان يقول فى لهفة واضحة ، وطلب أنطوان كأسا ثانية فثالثة .
ولم يعد أنطوان الى المطعم حيث ترك زوجته واخرج من جيبه العلبة الفضية ونظر اليها بعينين لاتعيان شيئا .

ولم يشأ ان يعود الى بيته فالوقت فى رأيه لايزال مبكرا لايسمح بالعودة الى البيت ، وقرر أن ينام أولا ثم يذهب بعد ذلك ولكن أين ينـــام ؟.

وسأل البارمان :

ـ هل يعرف غرفة يستطيع ان ينام فيها ؟.

وذهب البارمان الى امراة كانت جالسة مع امراتين فى مؤخرة الحانة . واخذت النسوة الثلاث يتحدثن معا وهن يفحصن أنطوان بنظراتهن .

واخيرا جاءت أحداهن نحوه وهى تنفث دخان سيجارتها امامها وسألته :

ـ هل أنت الذى تبحث عن غرفة ؟.

قال :

ـ نعم .. وكان من التعب بحيث حدثته نفسه بأن يكتفى بالنوم على أرض الحانة ! وكان لابد من الاسراع به الى الغرفة .

ومدت المرأة يدها فى جيبه وهى لاتتوقع منه احتجاجا وأخرجت منه كيس نقوده والقت نظرة على مابداخله وردته اليه راضية .

تعال معى فسنتدبر هذا الأمر .

وقادته الى غرفة مظلمة ولما أضاءتها كان الضوء أصفر كالحا ورأى فى هذا الضوء فراشا غير مرتبة مما دله على أن بعض الناس سبق أن ناموا فى الفراش فى أول الليل !.

وساعدته فى خلع معطفه .

الفصـــل الرابع

كان الوقت ظهرا عندما راى نفسه وحيدا فى شارع دنهمطهر على انه فى قلب المدينة ، والشارع خال من الناس ومن المركبات ، والحوانيت مغلقة ونوافذ البيوت مغطاة بالستائر ، وكأنما هى مغطاة

الى الأبد ، لم يكن هناك احد أو شيء سواه ، واستبدت به لهفة الى الجرى بحثا عن شيء يطمئنه الى أن العالم لم ينته بعـد !.

وكان عنقه متجمدا يؤلمه وكانت هناك آلام أخـرى تخزه فى صدره كأنها الأبر تخترق أضلعه .

وكان نبضه سريعا ولابد له من مكان يذهب اليه ، ولم يستطع أن يوضح لنفسه لماذا كان فى هذه العجلة من أمرة ، فترك الغرفة التى كان نائما فيها هل أصابه ذعر وقتئذ ؟.

وعندما جاءته المرأة كان يبحث عن حوائجه وسألته بصـوت أجش :

ـ هل انت ذاهب ؟.

ولم تطلب اليه البقاء ولم توجه اليه أسئلة نابيـة بل قالت له وهى لاتنتظر جوابا :

ـ هل تخاف زوجتك ؟.

وعدلت له ربطة عنقه ، واعارته مشـــطها الذى تنقصه بعض أسنانه ، ثم أخرجت كيس نقوده من جيبه كما فعلت فى الحانة ، واخرجت منه ورقة نقدية واحدة فحسب وضعتها تحت الشمعدان، واخرجت كذلك من كيس النقود صورة شمسية لأنطوان وجـولى كان قد التقطهما لهما مصور ممن يعملون على الرصيف عندما كـانا يتنزهان فى حديقة عامة فى السنة التى تم تعارفهما فيها . وكانت الصورة كالحة اللون بفعل الزمن ، ولم يجرؤ على انتزاعها من كيس النقود حتى لايؤذى شعور جولى .

ونظرت الفتاة الى الصورة ثم نظرت اليه ، واخيرا أعادت الصورة الى مكانها دون ابداء اية ملاحظة .

ـ هل انت واثق من انه يجب أن تذهب الآن ؟.

وكانت تكلمه من أجله هو لا من أجلها هى . واحس هو ذلك .

ـ اذن فحاول أن تخرج بلا ضوضاء ، اتمنى لك حظا سعيدا .

وخرج من هذا المكان هاربا كما هرب بالأمس ، ولكنه فى هذه المرة كان يبحث عن الجموع ، عن الحياة فى اى مظهر من مظاهرها، واخيرا قابل بعض العائلات وهن خارجات من الكنيسة فى ثيـاب الأحد وشم رائحة بعض العطور .

وعند احدى النواحى رأى بارا كبيرا خاليا من الناس نظيفا
ودخل البار ، وفى نيته أن يتصل تليفونيا ببيته وكان هذا هو
خير ما يمكن أن يفعله .
وشعر بأنه فى حاجة الى كأس شراب يناسب معدته الخاوية،
وشرب الكأس وهو ينظر الى خياله فى المرآة وشعر أنه أصبح أحسن
حالا ومضى نحو كشك التليفون .

وأدار القرص وهو مستعد لأن يسمع أى شىء ولأن يعترف بكل
شىء ولأن يتقبل أى خبر أو أى حكم وردت عليه مدام ارنو :
ـ هاللو !.
ـ كيف حالها ؟.
ـ أوه ! هل أنت !؟ حسنا .. انها لم تمت بعد ، ولا يرجع عدم
موتها اليك ، اسمع ، لو كنت مكانك ...
وكان هناك صوت وكلمات هامسة ثم سمع صوت جولى :
ـ هل هو أنت ؟.
ـ نعم .

وساد الصمت برهة طويلة وكانت تعلم أن ينتظر منها كلاما .
واخيرا قالت بصوت مكبوت :
ـ عد الى .
ورددت هذه العبارة بصوت ينم عن عاطفة قوية .
ـ عد الى ياأنطوان ، فلن أكلمك عن شىء أبدا .
ـ حسنا .

ـ أين أنت ؟ معذرة ، لم يكن هذا هو ماقصدت .
ـ لا عليك ، لست بعيدا عنك .
وأعاد السماعة الى مكانها وظل لحظة وحيدا فى الكشك ثم
عاد الى البار وقال للرجل :

ـ ربما كان من الأفضل أن أشرب كأسا أخرى .
وقدمت له الكأس ولم يكن فى عجلة من أمره .
ولما عاد الى البيت مر فى طريق عودته ببار آخر عند ناصية
شارع سانت هونوريه .

وفتحت مدام ارنو له الباب قبل أن يضع المفتاح في القفل وتحاشت مخاطبته على الاطلاق ، وربما كان تصرفها هذا تنفيذا لتعليمات جولي ، واكتفت بأن نظرت اليه نظرة باردة ، لم تأت زوجته لاستقباله بل ظلت راقدة في فراشها وسألها من بعيد دون أن يقترب من الفراش :

ـ هل أنت متعبة جدا ؟.

ـ كلا ، وأنت ؟.

ـ سأرقد في مكتبي .

ـ ألا تريد شيئا تأكله ؟ .

ـ ليس ذلك الآن .

هذه هي نغمة حديثهما في علاقاتهما المستقبلة ، يتكلمان برقة بدون كراهية أو قسوة بأصوات ينقصها الخيال !.

وفي الساعة الثالثة وبعد غفوة قصيرة سأل مدام ارنو كما لو كانت قد اصبحت منذ الآن الحاكم في البيت :

ـ هل يمكن أن أدخل الحمام ؟.

ـ سأتيقن أولا أنها مستيقظة ؛ لحظة ، نعم تستطيع أن تدخل الحمام ، وخير لك أن تأخذ قرصين من الاسبرين .

وأطاعها واغتسل بعناية أكثر مما تعود ، وكان عنقه وظهره يؤلمانه .

ـ لماذا تميل برأسك ؟.

ـ بعنقي ألم .

ولم يعرف هل استدعتا الدكتور بورجوا ذلك اليوم أو لا ؟ ولكن مدام أرنو ظلت بالشقة حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم الثالث . ونام هو في غرفة المكتب .

وسمعها تقول لجولي : لا تخرجي هذا الصباح ، سآمر على المتاجر وأطلب منها ارسال ما يلزمك قبل الظهر ، لا تنسى ما قلته لك .

وبعد منتصف النهار بنصف ساعة جاءت جولي اليه وقالت : أن الطعام معد ، وأكلت معه وقامت من المائدة مرتين لاحضار أطباق من المطبخ ، وعندما انتهى من تناول الطعام لم يشعر بميل الى الكلام .

ثم قال فجأة :

ــ اذا سمحت لى فانى سأخرج بعض الوقت .

ولأول مرة لم يبحث عن عـــذر بل اكتفى باعلان نيتـــه عمل شىء وقبلت هى منه ذلك على نحو طبيعى مما أثبت أن كليهما قد فهم الآخر فى أثناء الحديث التليفونى .

ــ كل ما ارجوه منك هو انك اذا عدت مبكرا بعــــد الظهــــر فلا توقظنى لأن الدكتور بورجوا يصر على أن أنام ســـاعتين بعد الغداء .

اذن فقد جاء الدكتور بورجوا ، وكانت هذه أول اشارة الى حالتها الصحية ولم يدخل فى تفاصيل الموضوع .

وعند ناصية الشارع دخل البار ، وطلب كأســـا من الشراب وكان يعرف ماذا يصنع ، ولم يكن ينوى أن يصبح مخمورا بل أراد ايجاد تعادل فى حالته فحسب .

وشرب كأسين واشترى الجريدة وعاد الى البيت ليقـرأها فى مكتبه وعندما سمع صوت جولى وقد استيقظت ذهب اليها وطرق باب غرفة نومها وقالت :

ــ ادخل .

ــ جئت أسألك فقط : هل نمت جيدا ؟

ــ جيدا جدا .

ولابد أنها عرفت أنه شرب فهى كانت تعرفه جيدا ، ولكنها لم تكن تجرؤ على ابداء ملاحظات .

وخرج ثانية بعد العشاء لمدة نصف ساعة وللسبب نفسه وعاد وهو حافظ لقواه العقلية ، ومثل هذا النظام سيصبح مقبولا وبعد ثلاثة أيام استطاع التحكم فى الكمية التى يشربها والتــزم هــذا القدر .

وفى الأمسية الأولى التى تركتهما مدام ارنو لشـــانهما ذهبت جولى لتأتى باغطيته ووسادته من غرفة المكتب ، وناما فى حجـــرة واحدة .

وفى اليوم التالى بدا عليها الانزعاج ولكنها لم تسأله الا بعـد تناول الافطار . . هل اصابته اية عدوى فى اثناء مبيته فى الخارج ؟

ولم يفهم على الفور ماذا تقصده ؟ ففسرت له ما تقصده .

ـ اقصد مرحنا .
واحمر وجهه خجلا وقال :
ـ لماذا تسألين هذا السؤال ؟.
رفعت كم ثوبها وأرته ورما وردى اللون على جسمها الأبيض.
وقالت :
ـ ان هذا منتشر فى جميع أنحاء جسدى .

وكان قد حدث مثل هذا لأنطوان منذ خمسة عشر عاما وقد تكلف جهدا كبيرا فى اقناعها بأن السبب فى ذلك هو البعوض !.
ـ هل أنت واثق ؟.
وأومأ براسه ثم قال :
ـ لا تخافى شيئا .
ولم تغضب عليه بل كانت مستسلمة .

واصبح يغشى البارين دون أن يعلق على زيارتهما أية اهمية ودون أن ينظر الى احد أو يرقب أحدا ، ثم خطر له ان الأفضل ان يأتى بزجاجة الى البيت ولم تعد به حاجة الى الاختباء أو الى اخفاء الشراب اذ أن جولى لم تعد تقول له شيئا عن ذلك أو تحاسبه عليه .

ووجد وسيلة لمنع الرعشة عن يديه كما وجد وسيلة أخرى لاستعادة الثقة بنفسه .

ولم يعد بينهما ذلك العداء القديم بل عادا الى الذهاب معا الى السينما بانتظام .

ولم تعد نوباته تخيفها بعد أن أكد له الدكتور بورجوا انها قد تستمر أعواما دون أن تسفر عن خطر ما .

ولم يعد يفكر فيما قديكون عليه شعورها نحوه مادامت لاتتدخل فى شئونه ولا فيما تقوله مدام أرنو عنه فى غيبته . ولا فى نظراتها القاسية اليه ! وقارن بين نفسه وبين الحيوانات فى حدائق الحيوان وهى فى اقفاصها لا تعبأ بمن ينظرون اليها من رواد الحدائق !.

« النهاية »

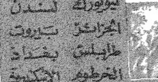
وزارة الثقافة والإرشاد القومي

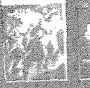
الدار القومية للطباعة والنشر

تعمل على تحقيق الثورة الثقافية التي نادى بها الرئيس جمال عبد الناصر

القاهرة

مركز عالمي للإشعاع الثقافي
كتاب كل ست ساعات









مكتبات الدار

نيويورك لندن
الجزائر بيروت
طرابلس بغداد
الخرطوم الإسكندرية
القاهرة

